سورة البلد

أسرار بيانية ودلالات نفسية واجتماعية

إِعْدادُ:

عماد طه أحمد الراعوش

الأستاذ المشارك في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث

سورة البلد تمثل نموذجا لإعجاز القرآن البياني، فهي على قصرها تعرض صورة خطيرة مؤثرة الإنسان وما يلاقيه من عناء وشقاء من أول حياته إلى مماته، وهي صورة نفسية مؤثرة تنطبق على الدعاة والمصلحين في كل زمان ومكان، إنها بلا شك سنة عامة لا تتخلف ولا تتبدل فالحق مستضعف مع أنه حق، والباطل غليظ شديد مع أنه باطل.

ضربت السورة مثلا ليس هنالك أدلُّ منه على تقرير هذه الطبيعة العجيبة، وهو مثل مؤثر لم تتخلف عنه هذه السنة مع أنه خير الخلق ورسول الحق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، عرضته وأبرزت أدق ما فيه من دلالات نفسية واجتماعية يمكن تعميمها على الشخصيات المشابهة من أول الزمان إلى آخره. وتعرض السورة وصفا مؤثرا لحال المسلمين في أول دعوتهم، وهذا ينسحب على حال الدعوات عندما تكون ضعيفة مهزومة مستعبدة، صورة مؤثرة يصفها الحق ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ [سورة البلد: ٢].

بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني القسوة، وصورة مقابلة لطغمة حاكمة مستبدة مستعبدة، نستشفها من قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ [سورة البلد: ٥ – ٦] اغترت بقوتها ومالها، وآذت النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين الضعفاء، وهذه الطغمة من الجبابرة موجودون في كل المجتمعات، ويا ويحهم جبابرة يظنون أنهم الأقوى وهم مخلوقون من ضعف مركب، بلغ بهم الضعف مبلغه، وبلغ بهم الغرور مبلغه حتى ظنوا أن لن يقدر عليهم أحد. وبلغ بهم التجبر مبلغه حتى استقووا على ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، وهذا حال هؤلاء في كل عصر

ومصر عندما يمتلكون وسائل السيطرة المادية. ها هنا تبلغ السورة في وصفهم قمة البلاغة وروعة البيان وهي تصف صورتهم وصفا يكاد يجسد صورة حقيقة لهم، وتلك بلاغة القرآن ومكمن إعجازه قال تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾ [سورة البلد: ١٣ – ١٦]

وما في هذا التعبير من دلالة على عبد مقهور مقبور لا يملك من أمره شيئا، وآخر وحيد ليس له أب ولا عزوة، غريب بين أهله، لأنه فقير لا يلوي على شيء، وفي زمن المادة الناس مع الغني، والفقير ليس له احد، وثالث أشدهم ضعفا جائع ضائع لا يملك شيء البتة حتى قوت يومه لا يملكه، فهو بهذا العالم المادي لا يملك إلا التراب والتراب ليس بشيء، هؤلاء فقدوا أهم مقومات الحياة.

بعد هذه الصور المؤثرة التي تثير كل نوازع الشفقة على الضعفاء وكل نوازع الحنق على الجبابرة الطغاة – وهذه هو مقصد الكلام – تطرح السورة بين سطورها وسائل التحرر ومقومات النهوض، وتبدأ أول ما تبدأ بالسعي إلى الحرية والدعوة إلى تحرير العبيد: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [سورة البلد: ١٣]

والحرية أول مقومات النهوض، والسورة توحي – وهي تتحدث عن الفرد والمجتمع – بأن حرية المجتمعات من سيطرة القوى الاستبدادية لا تقل أهمية عن حرية الأفراد، يليها التكافل الاقتصادي ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤﴾ [سورة البلد: ١٤]

ثم التكافل الاجتماعي الذي يبدأ بكفالة أصحاب الحاجات من الأقارب

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥﴾ [سورة البلد: ١٥] ثم التكافل الاجتماعي في دائرته الأوسع بين أبناء المجتمع كلهم ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾ [سورة البلد: ١٦]، ثم غرس المبادئ والقيم ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [سورة البلد: ١٧]، والتعاون على نشرها، والصبر عليها وعلى كل المصاعب التي يواجهها الدعاة في طريق الدعوة إلى الحق، وذلك وحده لا يكفي، بل لا بد من التواصي به والحث عليه، ولا بد من شيوع الرحمة والدعوة إليها.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء وهو على شيء قدير، الحمد لله حمدا يكافئ نعمه، ويدفع نقمه، ويفرج كربه، والصلاة والسلام على نبيه الأمين الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة ولاقى في سبيل ذلك صنوفا العذاب، وعلى آله وصحبة من سار على خطوه واستن بسنته، وعلى المستضعفين الذين أصابهم مثل كربه فصبر كصبره. وعلى الوالد وما ولد، واليتيم والمسكين وكل من أصابه ظلم ظالم تجبر واستبد، أما بعد:

يُعْنى التفسير البياني بالكشف عن الصور البيانية وأسرار التعبير الفنية التي يقدم فيها القرآن المعاني بأجلى وأحلى صورة، وذلك يحتاج إلى إبراز جمال الألفاظ وحسن اختيارها ثم حسن التأليف بينها، ثم عرض الصور الفنية التي يصوغ القرآن بها التراكيب ويقدم المعاني، ومن هذه الصور: التشبيهات والاستعارات والكنايات والتضمينات، والمحسنات البديعة كالتجانس والتلاؤم والفواصل، وأساليب القرآن التي يراوح فيها بين الحقيقة والمجاز والإطناب والإيجاز والوصل والفصل والتقديم والتأخير، والغرض من كل ذلك إثبات الإعجاز القرآن البياني.

والعجيب أنّه على الرغم من كثرة التفاسير وتنوعها إلا أنّها لم تكشف كل أسرار هذا الكتاب الكريم، وذلك لن يتسنى إلى قيام الساعة؛ لأن هذا الكتاب العظيم لم ينزل لفئة من النّاس أو لزمان من الأزمان بل لسائر النّاس منذ أول يوم نزل فيه إلى يوم الدين، وما دام هو كذلك فلا بد من أن يكون فيه ما يحتاجه النّاس في كل عصر من العصور. وهذا يتيح لكل صاحب

علم أن ينظر في القرآن مستعيناً بالله وطالباً هدايته وفتحه أولاً، ثم مستعيناً بما كتبه سابقوه من المفسرين. وعندها قد يَمُن الله عليه ويكشف له من أسرار القرآن الكريم ما لم يتسن لسابقيه. إن هذا القرآن كلام الله لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد.

ومن أكثر مناهج التفسير التي تتيح للمفسر فرصة النظر واكتشاف أسرار الكتاب التفسير البياني، وهو منهج يقوم على إبراز بلاغة القرآن والكشف عن أسراره البيانية وصوره الفنية، وهذا المنهج يتيح الفرصة للتجديد في التفسير، ويدع الباب مفتوحا لكل ناظر من المفسرين المتأخرين لأن يكتشف كنوزا ما اهتدى إليها سابقوه ولعله ينفرد بها عمن سيلحقونه، لأن هذا من أسرار القرآن التي لا تنقضي على مر السنين وكثرة الناظرين، وهذا مكمن الإعجاز الذي تحدى الله به الإنس والجن وما يزال التحدي قائما إلى يوم القيامة. والقرآن –كما قيل – مأدبة الله وحبل الله والنور المبين والشفاء النافع، وهو عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد.

وسيكون منهجي في الجزء التطبيقي الذي سأتناول فيه سورة البلد أن أفسرها تفسيرا يوضح ما فيها من معاني، ويبرز ما فيها من لمسات بيانية، ودلالات نفسية واجتماعية. معتمدا في النقول على عيون الأقاويل من المفسرين وأهل اللسان من المتقدمين والمتأخرين، مقتطفا من كلامهم ما اكتشفوه من لفتة ماتعة فريدة نافعة، لم يُسبقوا إليها، فأوثقها لأنها حكمة، ونحن طلابها ونترحم على قائلها.

والناظر في آياتها والممعن في دلالتها، يكاد يظن أن السورة لتوها قد نزلت، وما ذلك إلا لشدة الشبه بين الماضي الذي نزلت فيه والحاضر الذي نعيش فيه، والجامع بينهما، تكرار الانحرافات، وتشوه التصور البشري، واستهداف الدعوة الإسلامية وأهلها، حتى إنك لتحس أن المسلمين اليوم حيثما كانوا صورة مطابقة للمسلمين بالأمس حينما كانوا في أول دعوتهم في مكة.

أهمية الموضوع

١- تناولت سورة البلد مرحلة حرجة من مراحل الدعوة الإسلامية، وهي مرحلة الاستضعاف في مكة المكرمة في بداية الدعوة الإسلامية، وهي مرحلة شبيه إلى حد كبير بما يمر به المسلمون في بعض أنحاء العالم في هذه الأيام، ولعل دراسة هذه السورة تصف صبر النبي وتقدم ووسيلة لخلاص المسلمين المستضعفين في تلك الأماكن من الآثار السلبية النفسية والاجتماعية لهذه المرحلة.

٢- استنباط الدلالات النفسية والاجتماعية يسهم في إثراء علم لتفسير، كما يسهم في إثراء علوم عصرية مهمة وهي علم النفس وعلم الاجتماع وهذا يبرز التصور الإسلامي لهذه العلوم.

٣- استنباط الأسرار البيانية يدلل على وجه الإعجاز الأساسي للقرآن الكريم وهو الإعجاز البياني.

٤- استنباط الأسرار البيانية والدلالات النفسية يعمق أثر السورة في النفوس.

أهداف الدراسة

١- استنباط الدروس والعبر التي تفيد المسلمين المستضعفين وتعينهم على التخلص من الآثار السلبية النفسية الاجتماعية لما يتعرضون له من الأذى.

٢- الإسهام في إثراء علم النفس وعلم والاجتماع بما في السورة من دلالات نفسية واجتماعية.

٣- استنباط الأسرار البيانية والتدليل بها على الإعجاز البياني في القرآن الكريم.

منهج البحث

١- منهج نقلي أنقل فيه الآثار الوارد في تفسير السورة.

٢- منهج تحليلي أحلل فيه السورة إلى عناصرها الأساسية اللغوية والبيانية.

٣- منهج استنباطي استنبط فيه الأسرار البيانية والدلالات النفسية والاجتماعية للسورة.

٤- منهج موضوعي أربط فيه السورة بما بالسورة السابقة واللاحقة كما أربط آيات السورة ومقاطعها بعضها ببعض.

الدراسات السابقة

لم أجد بعد بحث طويل تفسيرا لسورة البلد يتناول الأسرار البيانية والدلالات النفسية والاجتماعية، لكن هنالك دراسات ذات صلة بالموضوع ومن هذه الدراسات:

١- كتب التفسير عموما ولم أجد في جميع كتب التفسير المطبوعة التي اطلعت عليها كتابا جمع كل الأسرار البيانية والدلالات النفسية والاجتماعية التي وقفت عليها.

٢- كتب التفسير البياني وكذلك لم أجد تفسيرا جمع كل ما ذكرت من إسرار بيانية.

٣- التفسير البياني لجزء عمَّ لعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) جاء فيه تفسير سورة البلد مختصرة.

ولذلك ستضيف هذه الدراسة بتوفيق الله ما يلي:

١- جمع ما انتشر في التفسير التحليلي والبياني من المسائل المتعلقة بتفسير السورة.

٢- تعزيز ما جاء في تفسير هذه السورة من الأسرار البيانية.

٣- تعزيز ما جاء في تفسير هذه السورة من الدلالات النفسية والاجتماعية.

خطة البحث

المقدمة: ذكرت فيها أهمية الدراسة وأهدافها والدراسات السابقة ومنهج البحث.

التمهيد: ذكرت فيه مطلبين هما:

المطلب الأول: معنى التفسير البياني.

المطلب الثاني: ومقدمة في بلاغة القرآن.

المبحث الأول: ذكرت فيه تمهيدا لتفسير السورة وجاء في مطالب هي:

المطلب الأول: تسميتها ونزولها وعدد آياتها.

المطلب الثاني: أغراضها.

المطلب الثالث: وجه ارتباطها بسورة الفجر.

المطلب الرابع: ارتباطها بسورة الشمس التي بعدها.

المبحث الثاني: قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ ۝١﴾ [سورة البلد: ١] والمقصود من القسم المنفي.

المبحث الثالث: قوله تعالى: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ [سورة البلد: ١]، والغرض من القسم بمكة.

المبحث الرابع: قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ ۝٢﴾ [سورة البلد: ٢]، والوجوه في معنى حلّ.

المبحث الخامس: قوله تعالى: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ [سورة البلد: ٢]، والغرض من إعادة البلد.

المبحث السادس: قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ [سورة البلد: ٣]، وسبب القسم بهما.

المبحث السابع: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾ [سورة البلد: ٤]، والغرض من التذكير بخلق الإنسان في كبد.

المبحث الثامن: قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ [سورة البلد:٥]، والمقصود من الاستفهام الإنكاري.

المبحث التاسع: قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ [سورة البلد: ٦]، والسر في التعبير بأهلكت.

المبحث العاشر: قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧﴾ [سورة البلد: ٧،] والسر في إعادة التعبير.

المبحث الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ [سورة البلد: ٨ – ٩،] والسر في خص هذه النعم بالذكر.

المبحث الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [سورة البلد: ١٠]، والسر من التعبير بالنجدين.

المبحث الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١١﴾ [سورة البلد: ١١]، ومناسبة التعبير لجو السورة.

المبحث الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝١٢﴾ [سورة البلد: ١٢]، والغرض البياني من هذا التعبير.

المبحث الخامس عشر: قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [سورة البلد: ١٣]، وأثر نظام العبودية على المجتمع

المبحث السادس عشر: قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤﴾ [سورة البلد: ١٤]، وسر خص الإطعام بهذا اليوم.

المبحث السابع عشر: قوله تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [سورة البلد: ١٥]، والغرض من خص اليتيم القريب.

المبحث الثامن عشر: قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [سورة البلد: ١٦]، والغرض من خص المسكين بالصدقة دون سائر المحتاجين.

المبحث التاسع عشر: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [سورة البلد: ١٧،] ومقارنة بين هذا الموضوع وشبيهه في سورة العصر.

المبحث العشرون: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ [سورة البلد: ١٨] والسر في التعبير ب(أولئك).

المبحث الحادي والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾﴾ [سورة البلد: ١٩]، ومقارنته مع الإشارة للمؤمنين.

المبحث الثاني والعشرون: قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة البلد: ٢٠]، والسر في التعبير ب (عليهم).

الخاتمة: بينت فيها نتائج البحث.

التمهيد

المطلب الأول: التفسير البياني

اهتم المفسرون بالتفسير البياني لأن غاية التفسير بيان ما في القرآن من طرق الاستعمال العربي وخصائص بلاغته وإعجازه. ولأنه أهم وجه من الوجوه التي تبرز إعجاز القرآن الكريم. وقد ثبت الإعجاز في هذه الناحية بأن الله تعالى تحدى بلغاءهم أن يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا، مع أنهم أهل البيان، وكان لديهم دوافع قوية للمعارضة بعد أن سفه محمد صلى الله عليه وسلم أحلامهم، وحقر آلهتهم، واتهمهم بالجهل والتقليد الأعمى، وقد لا حظ أئمة البلاغة هذا الوجه من بلاغة القرآن وأدركوا تميزه عن غيره من كلام العرب، واعترف المنصفون منهم بأنه فاق أبلغ ما قاله العرب مما عدّ في أقصى درجات البلاغة.

والتفسير البياني يُعنى بإبراز بلاغة القرآن والكشف عن الصور البيانية وأسرار التعبير الفنية التي يقدم فيها القرآن المعاني بأجلى وأحلى صورة، وذلك يحتاج إلى إبراز جمال الألفاظ وحسن اختيارها ثم حسن التأليف بينها، ثم عرض الصور الفنية التي يصوغ القرآن بها التركيب ويقدم المعاني كالتشبيه والاستعارة والكناية والتضمين، والمحسنات البديعة كالتجانس والتلاؤم والفواصل، وأساليب القرآن التي يراوح فيها بين الحقيقة والمجاز، والإطناب والإيجاز، والوصل والفصل، والتقديم والتأخير. وكل ذلك لإثبات إعجاز القرآن البياني وهو راجع إلى جهات هي[1]:

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١/ ١٠٢.

الجهة الأولى: بلوغ القرآن الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه تفيد معاني دقيقة، ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب، مما لا يفيده أصل وضع اللغة، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء.

الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام، مما لم يكن معهودا في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة.

المطلب الثاني: بلاغة القرآن الكريم

البلاغة كما يرى الرُّماني تحتمل في معناها ثلاثة احتمالات[١] :

الأولى: إفهام المعنى، والرُّماني يرى أن البلاغة في حقيقتها ليست ذلك، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيي.

الثاني: تحقيق اللفظ على المعنى (يقصد الرُّماني مطابقة اللفظ للمعنى)، وهذه عنده كسابقتها ليست البلاغة، لأنه قد يطابق اللفظ المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف، بمعنى أنه يمكن أن يُعبِّر المتكلم بلفظ مطابق للمعنى الواحد بلفظين أحدهما فصيح والآخر ليس كذلك.

الثالث: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ. والأخيرة حصرا هي البلاغة كما يرى الرُّماني، وهو بذلك يوافق الراغب الأصفهاني الذي يرى أن البلاغة تقال على وجهين:

أحدهما: "أن يكون الكلام بذاته بليغا بأن يجمع ثلاثة أوصاف، صوابه في موضوع لغته، ومطابقته للمعنى المقصود، وصدقه في نفسه. . .

(١) الرُّماني، النكت في إعجاز القرآن، ص ٧٥.

الثاني: أن يكون بليغا باعتبار القائل والمقول له"[1] .

وهذا يعني أن البلاغة متعلقة باللفظ من حيث دلالته على المعنى الذي في النفس، وهذا ما يسميه الجرجاني بالنظم، حيث يرى أن النظم توخي معاني النحو فيما بين الكلام على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام، فالبلاغة صفة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب، وهو يرى أن الإعجاز في النظم والتأليف[2] .

والإعجاز البياني يحس به صاحب الذوق السليم، لكنه لا يمكن أن يحصر ويوصف وصفا دقيقا، بل غاية الأمر فيه أن يذكر بضوابطه وصفته العامة، وهذا يكفي لإثبات الإعجاز. يقول السكاكي (٦٢٦هـ): "اعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، أو كالمَلاحة. ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا. وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين (المعاني والبيان). نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت إماطة اللّثام عنها لتجلى عليك، أما نفس وجه الإعجاز فلا". [3]

(١) الراغب، المفردات، مادة بلغ.

(٢) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ١/١٨-١٩، وانظره ١/١١٣.

(٣) السكاكي، مفتاح العلوم، ص٥٢٦.

المبحث الأول: بين يدي السورة

المطلب الأول: تسميتها ونزولها وعدد آياتها

ترجم لها البخاري[١] في صحيحه بسورة (لا أُقْسِمُ)، وفي المصحف اسمها سورة البلد.

والراجح عند جمهور المفسرين أنها مكية، بل ادعى الزمخشري[٢] الإجماع على مكيتها.

وقد نقل ابن عطية عن بعضهم[٣] أن السورة مدنية كلها، على أن المقصود من قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ [سورة البلد: ٢] ، الأذن في القتال يوم الفتح. ونقل السيوطي في الإتقان[٤] أن السورة مدنية إلا أول أربع آيات.

قلت: الكثيرون يقولون إنها مكية، وقلة يقولون مدنية، والعمدة للقطع في ذلك الرواية لا غير، وليس عند هؤلاء أو أولئك شيء منها، لذا لم يبق إلا الاستئناس بالسياق وخصائص النظم، والناظر في سورة البلد من أولها إلى آخرها يرى خصائص القرآن المكي بارزة عليها بوضوح، بدءا من القسم وهي صيغة غلبت على القرآن المكي، ثم القسم بهذا البلد وهي مكة باتفاق، ثم التذكير بخلق الإنسان في كبد، وهذا يذكّر ببداية الدعوة، وما

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة لا أقسم (البلد)، ٦/٢٠٩.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٧٥٨.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز، ١٩٧٩.

(٤) السيوطي، الإتقان، ١ / ٥٣.

واجه فيها المسلمون من كبد، وإن مضيت في سياق السورة حتى النهاية فسيطمئن قلبك إلى القول بمكيتها.

وعدد آياتها عشرون آية، بلا خلاف[1] .

المطلب الثاني: أغراضها

تبدأ السورة بقسم يظهر شرف مكة المكرمة، وشرف أشرف من سكنها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ثم تدخل السورة في مقصودها الأول وهو نفي القدرة عن الإنسان وإثباتها لخالقه سبحانه وتعالى، نفيها بالإشارة إلى ما يلازمه من الهموم والأحزان منذ ولادته إلى آخر حياته. وأثبتها لخالقه بإقامة الدليل على قدرته على خلق الإنسان، ومنحه مقومات الحياة، ثم التصرف في شؤونه من أول حياته إلى مماته، ثم بعثه ومكافأته أو عقابه.

يقول الإمام البقاعي عن السورة: "مقصودها الدلالة على نفي القدرة عن الإنسان، وإثباتها لخالقه الدّيان، بذكر ما للإنسان من الهموم والأحزان، وذكر الأسباب الموقعة له فيها شاء أو أبى، وذكر السبب المخلّص منها الموصل إلى السعادة في الآخرة، وهو ما هدى إليه ربه سبحانه" [2] .

المطلب الثالث: وجه ارتباطها بسورة الفجر

ذكر سبحانه وتعالى في سورة الفجر حالتين من حالات الإنسان: حالة السعة وكثرة الرزق، وحالة الضيق وقلة الرزق حيث قال تعالى: ﴿فَأَمَّا

(١) الألوسي، روح المعاني، ٣٠/ ٤٨٨.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ٨/ ٤٢٥.

﴿ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الفجر: ١٥ – ١٦]، وفي البلد ذكر كذلك حالة السعة وكثرة الرزق حيث قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾ [سورة البلد: ٥ – ٦]، وذكر حالة الضيق وقلة الرزق حيث قال: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [سورة البلد: ١٥ – ١٦]. يقول أبو حيان: "لما ذكر تعالى ابتلاءه للإنسان بحالة التنعيم وحالة التقدير، وذكر من صفاته الذميمة ما ذكر، وما آل إليه حاله وحال المؤمن، أتبعه بنوع من ابتلائه ومن حاله السيئ، وما آل إليه في الآخرة"(١) .

وفي سورة الفجر ذكر من لا يكرم اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، حيث قال: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الفجر: ١٧ – ١٨]، وفي سورة البلد حثَّ على العناية بالمسكين وإطعامه، حيث قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [سورة البلد: ١٢ – ١٦]. وفي سورة الفجر ذكر حبَّ الإنسان للمال، حيث قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الفجر: ١٩ – ٢٠]. وفي سورة البلد ذكر تفاخر الإنسان بإنفاق المال حيث قال: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾ [سورة البلد: ٦]. يقول الألوسي: " لما ذم سبحانه فيما قبلها من أحب المال وأكل التراث أكلا لما ولم يحضّ على طعام المسكين، ذكر جل وعلا فيها الخصال التي تطلب من صاحب المال"(٢) .

(١) أبو حيان، البحر المحيط، ٨/ ٤٦٩.

(٢) الألوسي، روح المعاني، ٣٠/ ٤٨٨.

ومن وجوه الارتباط ختمُ سورة الفجر بذكر القيامة، وبعث الناس للحساب، وندم الإنسان في ذلك الوقت على ما صنع في حياته، وتمنيّه أن لو قدم لآخرته بفعل الخير في دنياه، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الفجر: ٢١ – ٢٦]، وفي سورة البلد استدل على البعث ببدء الخلق ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ [سورة البلد: ٨]، وذكر ما ينبغي للإنسان أن يقدم من خير في دنياه؛ ليجده أمامه في آخرته، لئلا يندم يوم لا ينفع الندم، ومنه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ [سورة البلد: ١٣ – ١٤]. وفي الفجر ذكر جهنم وأهلها حيث قال: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الفجر: ٢٣] وذكر الجنة وأهلها حيث قال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الفجر: ٢٧ – ٣٠]. وفي البلد ذكر الجنة وأهلها حيث قال: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [سورة البلد: ١٧]. وذكر جهنم وأهلها حيث قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة البلد: ١٩ – ٢٠].

وفي الصلة بين خاتمة الفجر وفاتحة البلد وحسن الانتقال من الفجر إلى البلد يقول البقاعي: " بعد ما ختم آياتها _ أي الفجر _ بالنفس المطمئنة بعد ذكر الأمّارة التي وقعت في كبد النّدم الذي يتمنّى لأجله العدم، بعد ما تقدم من أنها لا تزال في كبد ابتلاء المعيشة في السرّاء

والضرّاء، افتتح هذه بالأمّارة مقسما في أمرها بأعظم البلاء وأشرف أولي النفس المطمئنة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾ [سورة البلد: ٤][(١)] .

المطلب الرابع: ارتباطها بسورة الشمس التي بعدها

لما ختم سبحانه سورة البلد بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، ذكر جل شأنه في سورة الشمس الفريقين بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [سورة الشمس: ٩ – ١٠]. ولما ذكر في سورة البلد أيضا ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ البلد: ١٠]. بيّنه في سورة الشمس بقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ [سورة الشمس: ٨]. وختم سبحانه هذه بشيء من أحوال الكفرة في الآخرة، وختم الشمس بشيء من أحوالهم في الدنيا[(٢)] .

(١) البقاعي، نظم الدرر، ٨/ ٤٢٥.

(٢) الألوسي، روح المعاني، ٣٠/ ٤٩٩

تفسير السورة

المبحث الثاني: قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ ۝١﴾ [سورة البلد: ١]، والمقصود من القسم المنفي.

ورد هذا التركيب في مطلع سورتين فقط: في سورة البلد مرة واحدة، وفي سورة القيامة مرتين في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [سورة القيامة: ١ – ٢].

وورد في أثناء بعض السور في ستة مواضع هي:

- قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [سورة الواقعة: ٧٥ – ٧٦].
- قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨﴾ [سورة الحاقة: ٣٨].
- قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾ [سورة المعارج: ٤٠].
- قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥﴾ [سورة التكوير: ١٥].
- قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦﴾ [سورة الانشقاق: ١٦].

والذي يقسِم في جميع هذه المواضع هو الله سبحانه وتعالى.

وقد تحدث المفسرون وعلماء اللغة عن الحرف (لا) الذي يسبق القسم في كل المواضع التي ورد فيها القسم بهذه الصيغة في القرآن الكريم، وانقسموا في أمره إلى فريقين:

الأول: قالوا إنها زائدة والمعنى أقسم، وممن قال بذلك من علماء

اللغة أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق المعروف بالزجاجي (٣٣٧) هـ صاحب كتاب حروف المعاني والصفات، حيث ذكر فيه أن بعض الحروف قد تأتي في القرآن زائدة نحو زيادة (لا) في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [سورة القيامة: ١] وذكر أنها في كلام العرب تزاد مع اليمين وتطرح[١]. وقال أصحاب هذا القول إنها زيدت للتأكيد. يقول الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: "والمعنى أقسم بهذا البلد، و(لا) أدخلت توكيدا"[٢] . وقالوا إنها زائدة تفيد التأكيد دون أي إشارة إلى الصفة التي ازدادت العبارة بها تأكيدا.

وهذا الرأي عندي بعيد؛ لأن فائدة وضع الألفاظ كما يقول ابن الأثير (٦٣٧): " أن تكون أدلة على المعاني، فإذا وردت لفظة من الألفاظ في كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة فالأولى أن تحمل تلك اللفظة على معنى"[٣] .وهو كذلك بعيد لا ينسجم مع بلاغة القرآن الكريم وإعجازه. إذ ما من حرف ولا حركة في القرآن كما يقول الرازي إلا وفيه فائدة"[٤] . ويؤكد ذلك ابن الأثير فيقول: "إن هذه اللفظة لو كانت زائدة لكان ذلك قدحا في كلام الله تعالى، وذلك أنه يكون قد نطق بزيادة في كلامه لا حاجة إليها والمعنى يتم بدونها وحينئذ لا يكون كلامه معجزا".[٥]

---

(١) الزجاجي، حروف المعاني والصفات، ص ٨، وذكر ذلك صاحب الجلالين والصاوي في حاشيته عليه ٦/ ٢٧٨.

(٢) الزجاج، معاني القران وإعرابه، ٥/ ٣٢٧.

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ٣/ ١٣-١٤.

(٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٥/ ٦٢.

(٥) ابن الأثير، المثل السائر، ٣/ ١٤.

حتى إن بعض من قبلوا القول بزيادة بعض الحروف في القرآن مثل الزمخشري اعترضوا على القول بزيادة (لا) في مثل هذا الموضع، لأنها لا تزاد إلا في وسط الكلام وهي هنا في أوله[١] .

الثاني: قالوا إن (لا) غير زائدة واختلف هؤلاء على ثلاثة أقوال:

أولها: أن (لا) أصلها لام الابتداء أشبعت فتحتها، ويرجح ذلك قراءة سبعية بلام دون ألف (لأقسم بيوم القيامة)[٢]، كما أن هذا الأسلوب شائع في العربية. وذكر هذا القول الشنقيطي في أضواء البيان [٣] واستشهد عليه بشواهد كثيرة.

ثانيها: أن (لا) نافية لكلام محذوف، كأنه قيل: لا، ليس الأمر كما زعمتم بأن الإنسان لن يقدر عليه أحد، بل أقسم بهذا البلد على أنّا خلقناه في كبد وأنّا قادرون عليه. وهذا ما اختاره الطبري حيث قال: " وأولى الأقوال عندي بالصواب قول من قال: إن الله أقسم بيوم القيامة، وبالنفس اللوامة، وجعل (لا) نفيا لكلام قد كان تقدمه من قوم وجوابا لهم[٤]. قلت: وهذا القول يحتاج إلى تقدير محذوف والتقدير خلاف الأولى، وليس هنالك ما يلجئنا له مع وجود أقوال أخرى وجيهة لا تحتاج لتقدير محذوف.

ثالثها: أن (لا) هنا نافية للقسم حقيقة. وكأنه يقول: (لا أُقْسِمُ) بهذه

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٦٥٩.

(٢) قرأ ابن كثير (لأقسم بيوم القيامة)، انظر: السبعة في القراءات (ص: ٦٦١).

(٣) الشنقيطي، أضواء البيان، والملحق المسمى دفع إيهام الاضطراب ٣٧٢/٦، ونقل هذا القول الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٦٥٩.

(٤) الطبري، جامع البيان، ٤/ ١٧٢.

الأشياء، على إثبات هذا المطلوب، فإن هذا المطلوب أعظم وأجل من أن يقسم عليه بهذه الأشياء، ويكون الغرض من هذا الكلام تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه. أو أن يقال إن هذا المطلوب أظهر وأجلى وأقوى من أن يثبت بهذه القسم(١).

هذا القول هو المختار عندي؛ لأنه معروف في العربية، ومستخدم على ألسنة الناس، فقد يقول قائل لا أريد أن أقسم أني سأفعل كذا وكذا، وهو يقصد إثبات قدرته على الفعل، ونفيه القسم إنما يقصد منه تأكيد القدرة على الفعل، وكون ذلك أثبت من أن يؤكد بقسم. كما أن هذا القول يجنبنا القول بوجود حروف زائدة في القرآن، والشأن في كلام الله أن كل حرف وكل كلمة جاءت لمعنى لا يستغنى عنه، والقرآن معجز وإعجازه له وجوه أهمها والذي حصل به التحدي هو الإعجاز البياني، وهو يعنى فيما يعنيه أن القرآن جاء على نحو من النظم يناسب تماما المعاني المقصودة منه، وأن كل كلمة من كلماته وكل حرف من حروفه جاء في مكانه المناسب، بحيث لا يمكن حذفه أو استبداله مع بقاء المعنى على حاله. وعليه لا يصح ادعاء زيادة أي حرف، ولا قصر فائدته على التأكيد فحسب، لأن هذا تجريد للحرف من فائدته الأصلية. يقول الرازي: " إن الله تعالى وصف القرآن بكونه هديا وبيانا، وكونه لغوا (يقصد زائدا) ينافي ذلك"(٢).

---

(١) اختاره الزمخشري، في الكشاف، ٤/ ٦٥٩، والفخر الرازي، في مفاتيح الغيب، ٣٠/١٩٠، ومحمد عبده في تفسير جزء عم، ص٢٩.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ٢/ ١٣٥.

المبحث الثالث: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ [سورة البلد: ١]، والغرض من القسم بمكة.

البلد هي مكة وقد نقل الرازي[١]، والشيخ زاده في حاشيته على البيضاوي[٢] الإجماع على ذلك، والبلد في كل المواضع التي جاءت فيها معرفة أو معينة باسم الإشارة هي مكة، وهذه المواضع حصرا هي:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا ۝١٢٦﴾ [سورة البقرة: ١٢].
- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥﴾ [سورة إبراهيم: ٣٥].
- ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ [سورة التين: ٣].

والإشارة (بهذا) مع بيانه بالبلد دون الاكتفاء بقوله بالبلد، إشارة إلى حاضر في أذهان السامعين كأنهم يرونه؛ لأن رؤيته متكررة. وفي هذه الإشارة كذلك زيادة في تشريف هذا المكان. قال ابن عاشور: "وفائدة الإتيان باسم الإشارة تمييز المقسم به أكمل تمييز، لقصد التنويه به" [٣].

ومكة هي بيت الله الحرام اختصت بأنها أول بيت وضع للناس في الأرض ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٦﴾ [سورة آل عمران: ٩٦]. ليكون مثابة لهم وأمنا، والأمن مطلب بشري، وحاجة اجتماعية، وقد كرم الله مكة وخصها بأن جعل فيها ما يلبي لهم هذه الحاجة، يلتقي الناس فيها

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ١١/ ١٦٤.

(٢) الشيخ زاده في حاشيته على البيضاوي، ٨/ ٦٠٠.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٠/ ٣٠٦.

متسالمين، لا يجوز لأحد أن يعتدي على بشر ولا شجر ولا طير، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [سورة البقرة: ١٢٥]. ولأن الإنسان تعرض له صنوفا من الكروب والمكدرات جعل الله مكة مثابة للناس يحجون إليه ويصلون فيه ويتقربون إلى ربهم، فتسكن نفوسهم بشعورهم برضا الله عنهم، قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [سورة البقرة: ١٢٥]، ولأجل أن تحقق مكة هذه الحاجة البشرية والضرورة الاجتماعية طهرها وهيأها بما يؤمن الراحة لحجاجها، قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [سورة البقرة: ١٢٥].

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يوم افتتح مكة: "«لاَ هِجْرَةَ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ، فَانْفِرُوا، فَإِنَّ هَذَا بَلَدٌ حَرَّمَ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ القِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلاَ يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا»، قَالَ العَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا الإِذْخِرَ فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ، قَالَ: قَالَ: «إِلَّا الإِذْخِرَ»"[(١)].

(١) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢/١٤ رقم (١٨٣٤).

المبحث الرابع: قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ ۝٢﴾ [سورة البلد: ٢]، والوجوه في معنى حلّ.

ذكر المفسرون في معنى (حلّ) احتمالات هي:

الأول: أن يكون (حلّ) اسم مصدر من أحل، أي أباح، وتكون بمعنى اسم المفعول أي مستحل، والمعنى جعلك أهل مكة حلالا بهذا البلد، أي مستحلا قتلك وإخراجك، والمقصود على هذا المعنى التعريض بذم المشركين في عدوانهم وظلمهم للرسول صلى الله عليه وسلم، وبيان المكابدة التي لقيها بداية دعوته.

يقول الألوسي: " فيه _ أي القسم _ تحقيق مضمونه بذكر بعض المكابدة على نهج براعة الاستهلال، وإدماج لسوء صنيع المشركين، ليصرح بذمهم على أن الحلّ بمعنى المستحل بزنة المفعول الذي لا يحترم". [١] ويقول الزمخشري: "ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد الحرام، كما يستحل الصيد في غير الحرم"[٢] .

ويبدو لي أن هذا المعنى مناسب للمقسم عليه في هذه السورة وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [سورة البلد: ٤]، أي أن استحلال إيذائك في هذا البلد، وما تتلقاه من عنت في دعوتك مناسب للطبيعة التي خلق الله الإنسان عليها، وهي المكابدة في هذه الحياة.

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ٣٠/ ٤٨٨، وذكر ذلك الزمخشري، في الكشاف، ٤/ ٧٥٧ وأبو السعود، في إرشاد العقل السليم، ٦/ ٤٣٠ واللفظ للألوسي.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٧٥٧.

وعلى هذا المعنى تكون جملة وأنت حلّ بهذا البلد اعتراضية، حيث أقسم الله بالبلد ثم اعترض بذكر ما يلقاه النبي صلى الله عليه وسلم من المكابدة.

الثاني: أن تكون بمعنى حالّ أي مقيم في هذا البلد، وعليه تكون جملة ﴿وَأَنتَ حِلٌّ﴾ في موضع الحال.

قال البيضاوي: " أقسم سبحانه بالبلد الحرام، وقيده بحلوله عليه السلام فيه إظهارا لمزيد فضله وإشعارا بأن شرف المكان بشرف أهله" [(١)]، وقال شيخ زادة في شرحه على البيضاوي: "الواو حالية لا اعتراضية والجملة الاسمية حال من المقسم به"[(٢)]، والمعنى على ما ذكر البيضاوي وصاحب الحاشية لا أقسم بهذا البلد حال كونك مقيما به، واعترض على هذا القول ابن عاشور فقال: " وهو تأويل جميل لو ساعد عليه ثبوت استعمال (حلّ) بمعنى حال أي مقيم في مكان، فإن هذا لم يرد في كتب اللغة "[(٣)] .

الثالث: أن تكون من الحلّ الذي وهو ضد المنع، والمعنى أنت في حلّ في أمرك تصنع ما تشاء، أو أنت في حلّ في قتل من قاتلك، قال الفراء: "حلال لك أحله يوم فتح مكة، لم يحل قبله ولن يحل بعده"[(٤)].

---

(١) ذكر هذا القول واختاره البيضاوي، في أنوار التنزيل وأسرار التأويل، انظر البيضاوي وحاشية شيخ زاده عليه، ٦٠٠/٨، وذكر هذا القول الرازي، في مفاتيح الغيب، ١٦٤/١١ واختاره أبو حيان، في البحر المحيط ٤٦٩/٨.

(٢) شيخ زادة، في حاشيته على البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٦٠١/٨.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٠/ ٣٠٨.

(٤) الفراء، معاني القران، ٢٦٣/٣.

وقد ذكر هذا القول وقواه صاحب الكشاف حيث قال: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ﴾ في معنى الاستقبال ونظيره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [سورة الزمر: ٣٠].

ومثله واسع في كلام العباد، تقول لمن تعده الإكرام والحباء: أنت مكرم محبو، وهو في كلام الله أوسع؛ لأن الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة والمشاهدة"[١].

والذين قالوا بهذا المعنى ممن قالوا السورة مكية حملوا الحلّ على الاستقبال كما ذكر الزمخشري، وعلى هذا المعنى تكون فائدة القسم تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بتبشيره بالنصر. وبعض من قالوا إن سورة البلد مدنية نزلت بعد الفتح حملوا (حلّ) على الحاضر، وهذا كما بينا مرجوح.

الرابع: أن الحلّ ضد المنع، والمعنى أنت في حلّ مما يقترفه أهل هذا البلد من معاصي[٢]، والغرض من القسم على هذا المعنى تشريف النبي صلى الله عليه وسلم وتنزيهه عما يرتكبه أهل مكة من آثام.

وعلى هذين المعنيين تكون جملة وأنت حلّ بهذا البلد اعتراضية، أقسم الله بالبلد ثم اعترض بوعده بأنه سيكون في حلّ مما سيفعل بها يوم فتح مكة، أو مما يفعل بها أهلها من مآثم على المعنى الثاني.

كل ما ذكر معاني محتملة لقوله تعالى: (حلّ) ولكل واحد منها

(١) الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٧٥٨ بتصرف يسير، وذكر القول الرازي، في مفاتيح الغيب، ١١/ ١٦٤، وأبو السعود، في إرشاد العقل السليم، ٦/ ٤٣٠، والألوسي، في روح المعاني ٣٠/ ٤٨٩ وابن عاشور، في التحرير والتنوير، ٣٠/ ٣٠٨ ورد هذا القول أبو حيان، في البحر المحيط، ٨/ ٤٦٩.

(٢) ذكره الرازي، في مفاتيح الغيب، ١١/ ١٦٤.

دليل يؤيده وتأويل يحمل النظم عليه، غير أن أقوى هذه الوجوه وأوجهها عندي الأول؛ لأنه كما بينت منسجم مع سياق السورة وهو خلق الإنسان وذكر بعض ما يكابده في هذه الحياة، وأدل مثال عليه مكابدة النبي صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته وقد استحل كفار قريش إيذاءه في بلد جعله الله أمنا وسلاما لساكنيه، وكلفهم أن يهيئوا أسباب الأمن والسلامة لزائريه ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة البقرة: ١٢٥]، في بلد ما كان ينبغي أن يفعل أهلها العرب ما فعلوه بنبي عربي بمدينة شرفها الله بالكعبة التي بناها أبو العرب جميعا إبراهيم عليه السلام، ما كان ينبغي أن يفعلوا بها ما فعلوه لا بإنس ولا وحش ولا طير، بينما فعلوه برسول رسالة الإسلام الأمن والسلام.

أما حملها على معنى حالّ فهو قوي لكن القول الأول أقوى؛ لأن في هذا تقييدا للقسم بمكة حال كون النبي صلى الله عليه وسلم حالّاً فيها، ولا وجه للتقييد، بل إن الله أقسم بمكة بدون هذا القيد في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [سورة التين: ١ – ٣].

أما أن نقول إن الحلّ بمعنى المنع فليس بقوة الأول؛ لأن حلّه من المؤاخذة عما سيفعله إنما هو من القصاص، ومن الجهاد لنشر الدعوة وهذا معلوم حلّه، ولا زيادة فيه.

أما كونه حلّا مما يفعل قومه فهذا معنى مسلّم وليس فيه جديد إذ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [سورة الزمر: ٧]. وعدم المؤاخذة بذنب الغير ليس خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم بل عاما لسائر المسلمين، وليس خاصا بمكة بل عاما لسائر الأرض، وليس لتخصيصها بالنبي في مكة وجه.

المبحث الخامس: قوله تعالى: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ [سورة البلد: ٢]، والغرض من إعادة البلد

أعيد ذكر اسم الإشارة الدال على البلد، وأعيد ذكر البلد، ولم يكتفى بالقول وأنت حلّ بالبلد أو وأنت حلّ به. لأن في التكرار زيادة في تعظيم مكة، لشرفها وشرف ساكنها عليه أفضل الصلاة والسلام[1] . وقيل: ذلك لقصد تجديد التعجب[2] .

وهنالك غرض آخر من هذا التكرار – مناسب لقوله (وَأَنْتَ حِلٌّ) بالمعنى الثاني الذي ذكرناه– وهو أنك في حلّ في هذا البلد من قتل من آذاك والقصاص منه، وهذا التنبيه لأن حكم مكة الأصلي أنها بلد حرام لا يحلّ فيها سفك الدم، لكن الله أحلّ لنبيه صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ما لم يحلّه لغيره من قتل وسفك، فكان في التكرار إشارة إلى أن البلد المذكور في المرة الثانية هو مكة في يوم خاص هو يوم الفتح، وكأن مكة في هذا اليوم غير مكة في غيره من الأيام، ومكة في الآية الثانية غير مكة في الآية الأولى. يقول صاحب درة التنزيل: " إذا عني بالثاني غير المقصود بالأول من وصف يوجب له حكما غير حكم الأول كان من مختار الكلام. فالبلد الأول قصد به وصف لم يحصل في الثاني وهو مكة؛ لأن معنى أقسم بالبلد المحرم الذي جبلت على تعظيمه قلوب العرب، فلا يحلّ فيه لأحد ما أحلّ للنبي صلى الله عليه وسلم فقوله (وَأَنْتَ حِلٌّ) أي: محلل أحلّ لك منه ما حرم على غيرك. فصار المعنى: أقسم بالبلد المحرم تعظيما له وهو مع أنه محرم على غيرك. محلّل لك إكراما لمنزلتك. فالبلد في الأول

(١) الغرناطي، ملاك التأويل، ٣/ ١١٤٥

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٠/ ٣٠٨.

محرم وفي الثاني محلل". [١]

لكني أرى أن القول الأول أقوى لأن (أل) للعهد، كما أننا استبعدنا تفسير حلّ بمعنى محلل لك.

ومن لطائف البيان أنه سبحانه وتعالى جرد البلد مما وصف به في نحو هذا القسم في سورة التين حيث قال: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [سورة التين: ٣]؛ لأن سياق السورة لا يناسبه هذا الوصف، فالسياق ذكر للمكابدة في هذا البلد واستحلال قتل النبي صلى الله عليه وسلم وإيذائه، ولا يناسب ذلك ذكر الأمن. كما أن السياق قد يحمل على معنى وأنت في حلّ من قتل وإيذاء من آذاك – على القول الثاني في معنى حلّ– ولا يناسب ذلك ذكر الأمن[٢] .

المبحث السادس: قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ [سورة البلد: ٣]، وسبب القسم بهما

ذكر المفسرون في المراد من الوالد والولد أقوالا منها: انهما آدم عليه السلام وذريته، ومنها إبراهيم عليه السلام وإسماعيل، والأقوى عندي أنها عامة تشمل كل والد وكل ولد، حتى قيل تشمل الوالد والولد من الحيوان والنبات. ولا دليل على التخصيص بمعين، بل إن هنالك مرجحات ترجح العموم منها تنكير الوالد والولد ومنها كذلك اختيار حرف (ما) بدل حرف (من) حيث أن (ما) أعم وأشمل فهي تستخدم للعاقل وغيره، أما (من) فلا تستخدم إلا للعاقل، واستخدام الحرف الذي يدل على الأعم

(١) الخطيب الإسكافي درة التنزيل وغرة التأويل، ، ص ٣٦٧.

(٢) فاضل السامرائي، لمسات بيانية في نصوص التنزيل، ص ٢٤٨.

والأشمل يرجح القول بعموم الوالد والولد، كل هذه الدلائل أقوى من القسم بمكة وإبراهيم الوالد وإسماعيل الولد اللذان بنياها.

يقول ابن عاشور: " إن قوة الإبهام في (ما) أنسب لإرادة الجماعة دون واحد معين". [1] هذا على أن ما هي الموصول. وقيل هي للتعجب والعدول عن (من) إلى (ما) لإفادة ذلك، وهي نحو ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ ٣٦﴾ [سورة آل عمران: ٣٦][2] .

وذكر الفراء أنها قد تكون (ما) المصدرية كأنه قال ووالد وولادته[3] وقد نقل السمين الحلبي[4] قولا بأن (ما) للنفي، وهو ضعيف ولم يلتفت إليه جل المفسرين.

والذي أرجحه أن (ما) هي الموصولة، لأن معنى قوله تعالى على هذا الاحتمال ووالد والذي ولده، فيشمل القسم بالوالد والولد وهما مثالان على المكابدة. أما بحملها على المصدرية يصبح المقصود ووالد وولادته فيختص القسم بالوالد دون الولد. ولا وجه لخصوص الوالد دون الولد في شأن المكابدة؛ لأن المكابدة عامة، بدليل قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤﴾ [سورة البلد: ٤]، والإنسان إما الوالد أو الولد خلق كل منهما في كبد.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٠/ ٣٠٩.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٧٥٨ واختاره البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٨/ ٦٠٢ والرازي، مفاتيح الغيب، ١١/ ١٦٥.

(٣) الفراء، معاني القران، ٣/ ٢٦٤.

(٤) السمين الحلبي، الدر المصون، ١١/ ٦

وفي اختيار القسم بالوالد والولد مناسبة للمقسم عليه وهو خلق الإنسان في كبد، إذ الولادة مكابدة ومشقة على الوالد والولد من أولها إلى آخرها. والقسم بالوالد والولد "يلفت نظرنا إلى رفعة هذا الطور من أطوار الوجود وهو طور التوالد، وإلى ما فيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع، وإلى ما يعانيه الوالد والمولود في إبداء النشء وإكمال الناشئ وإبلاغه حده من النمو المقدر له" (١) .

المبحث السابع: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾ [سورة البلد: ٤]، والغرض من التذكير بخلق الإنسان في كبد

- اللام في (لقد) هي الواقعة في جواب القسم، وهي تفيد التأكيد، وقد للتحقيق (٢) .
- واختيار ضمير المتكلم في (خلقنا) الذي يدل على الجمع للتعظيم.
- (والإنسان) جنس الإنسان.

والكبد المشقة(٣) ، وهو الأقرب للسياق، والأنسب لاتساق النظم. والمعنى خلقنا الإنسان يكابد المشاق كما في الانشقاق ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۝٦﴾ [سورة الانشقاق: ٦]. والمشقة تلازمه منذ ولادته يوم يخرج إلى الحياة من رحم الظلمات باكيا لا يلوي على شيء، إلى أن يخرج منها لقبر الظلمات لا يقوى على شيء ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي

(١) محمد عبده، تفسير جزء عم، ص٨٨.

(٢) ابن هشام، مغني اللبيب، ١/ ١٩٧.

(٣) الراغب، المفردات، ٤٢٢

﴿ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة يس: ٦٨]. والمقصود تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ببيان أن ما يكابده من مشقة في مكة هو حال عام ملازم لخلق الإنسان.

وقيل الكبد الانتصاب والاعتدال[١]، وقيل الكبد القوة والشدة[٢]، وهو فيما أرى بعيد ونافر عن السياق؛ لأن ما بعده قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾ [سورة البلد: ٥]، وهو تلميح لضعف قدرة المخلوق مقابل قدرة الخالق، وهذا المعنى لا يناسبه إرادة القوة والشدة من قوله في (فِي كَبَدٍ).

"وكل الناس في هذه الدنيا يكدحون ويواجهون المشاق، وتلك سنة بشرية واجتماعية وتتنوع المشاق هذا يكدح بعضلاته. وهذا يكدح بفكره. وهذا يكدح بروحه. وهذا يكدح للقمة العيش وخرقة الكساء. وهذا يكدح ليجعل الألف ألفين وعشرة آلاف. وهذا يكدح لملك أو جاه، وهذا يكدح في سبيل الله. وهذا يكدح لشهوة ونزوة. وهذا يكدح لعقيدة ودعوة. وهذا يكدح إلى النار. وهذا يكدح إلى الجنة. والكل يحمل حمله ويصعد الطريق كادحا إلى ربه فيلقاه! وهناك يكون الكبد الأكبر للأشقياء. وتكون الراحة الكبرى للسعداء.

إنه الكبد طبيعة الحياة الدنيا. تختلف أشكاله وأسبابه. ولكنه هو الكبد في النهاية. فأخسر الخاسرين هو من يعاني كبد الحياة الدنيا لينتهي إلى الكبد الأشق الأمرّ في الأخرى. وأفلح الفالحين من يكدح في الطريق

(١) الفراء، معاني القران، ٢٦٤

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ١١/ ١٦٦

إلى ربه ليلقاه بمؤهلات تنهي عنه كبد الحياة، وتنتهي به إلى الراحة الكبرى في ظلال الله.

على أن في الأرض ذاتها بعض الجزاء على ألوان الكدح والعناء. إن الذي يكدح للأمر الجليل ليس كالذي يكدح للأمر الحقير. ليس مثله طمأنينة بال وارتياحا للبذل، واستراحا بالتضحية، فالذي يكدح وهو طليق من أثقال الطين، أو للانطلاق من هذه الأثقال، ليس كالذي يكدح ليغوص في الوحل ويلصق بالأرض كالحشرات والديدان! والذي يموت في سبيل دعوة ليس كالذي يموت في سبيل نزوة. ليس مثله في خاصة شعوره بالجهد والكبد الذي يلقاه" [(١)] .

واختيار الحرف (في) فيه من البيان معنى عظيم، وهو أن الكبد قد أحاط به إحاطة الظرف بالمظروف[(٢)] .

والجملة جواب القسم حيث أقسم بالبلد الحرام حال حلول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيها، وحال ملاقاته المشاق، وأقسم بالوالد والولد وهما عنوان المكابدة على أن الإنسان خلق محاطا بالشدائد والمشاق.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/٣٩١٠.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ٨/ ٤٢٧ وشيخ زادة في حاشيته على البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٨/ ٦٠٣.

المبحث الثامن: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ [سورة البلد: ٥]، والمقصود من الاستفهام الإنكاري

الهمزة حرف استفهام والاستفهام للتعجب[١] ، وقيل للتوبيخ[٢] .

والحِسْبَةُ فِعل ما يحتَسِب ومَصدَرُهُ الحِسْبَانُ وهو: أنْ يَحكُمْ لِأَحَدِ النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله فَيَحْسِبُهُ، ويقارب ذلك الظنُّ لكن الظنّ أَنْ يُخْطِرَ النقيضين بباله فَيُغَلِّبَ أحدَهما على الآخر[٣] . والظَّنّ اسمٌ لما يحصل عن إمارة ومتى قوِيَتْ أدت إلى العلم، ومتى ضَعُفَتْ جدا لم يتجاوز حدَ التّوهّم[٤] .

وقد تساءلت في نفسي لم اختار جل شأنه أيحسب بدل أيظن وهما متقاربان كما ذكر الراغب؟ فبدا لي أن المرء الموصوف هنا وصل إلى هذا الحكم بطريق فاسد لا يتفق مع قواعد البحث عن الحقيقة، فقد نظر إلى قوة حاله وأغفل قوة ربه فحسب ما حسب، فما استحق حاله أن يوصف بأي رتبة من رتب العلم، ولا حتى الظن، لأن الظانّ ينظر إلى أطراف القضية جميعا ثم يحكم بعد ذلك، وقد يصل حكمه إلى شيء من العلم، وحال هذا المرء ليس كذلك.

و(أن) المخففة من أنّ، واسمها ضمير شأن محذوف، والمعنى أيحسب

(١) الألوسي، روح المعاني، ٣٠ / ٤٢٧.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٠ / ٣١١.

(٣) الراغب، المفردات، ص ١٢٥.

(٤) الراغب، المفردات، ص ٣٢٠.

أن لن يقدر على الانتقام منه أحد[١]، والضمير في (أيحسب) عائد على الإنسان وفي تعين المقصود خلاف، فقيل هو عام، والاستفهام للتعجب، وقيل المقصود الكافر الذي ينكر البعث، والاستفهام للتوبيخ، والأول أقوى لأن الضمير عائد على الإنسان في الآية السابقة، وهو عام كعموم ما عاد عليه.

و(لن): حرف نصب ونفي واستقبال[٢].

ومناسبة الآية لما قبلها أن السابقة ذكرت خلق الإنسان مغمورا في المشقة والتعب، وهذه تعجبت من حال من يظن أنه لن يقدر عليه أحد على الرغم من حال الكبد والضعف التي خلق عليها. والعجيب أن هذا الذي خلق من ضعف وسينتهي إلى ضعف، ومن كبد إلى كبد أشد منه من يظن أنه قد بلغ من القوة والمنعة فلا يقدر عليه أحد. وأول من يعنى بهذا التوبيخ كفار قريش الذين اغتروا بقوتهم، وآذوا النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين الضعفاء، فيا ويحهم ضعفاء يستقوون على ضعفاء. "إن هذا الإنسان المخلوق في كبد، الذي لا يخلص من عناء الكدح والكد، لينسى حقيقة حاله وينخدع بما يعطيه خالقه من أطراف القوة والقدرة والوجدان والمتاع، فيتصرف تصرف الذي لا يحسب أنه مأخوذ بعمله، ولا يتوقع أن يقدر عليه قادر فيحاسبه. فيطغى ويبطش ويسلب وينهب، ويجمع ويكثر، ويفسق ويفجر، دون أن يخشى ودون أن يتحرج.. وهذه هي صفة الإنسان الذي يعرى قلبه من الإيمان [٣].

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ٦/ ٤٣١.

(٢) ابن هشام، معني اللبيب ٣١٢/١.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣٩١٠/٦.

المبحث التاسع: قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ [سورة البلد: ٦]، والسر في التعبير بأهلكت

المقصود الإنسان الذي ظن أن لن يقدر عليه أحد، والمراد بيان سبب هذا الظن وهو كثرة ماله وكثرة إنفاقه. يقول أهلكت مالا لبدا: يقصد أنه أنفق ما يظن أنه يجعله في قوة ومنعة من الله، ويحسب ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ [سورة البلد: ٥]، وعبَّر عن الإنفاق بالإهلاك لمناسبته لجو السورة، وهو ذكر خلق الإنسان في كبد وما يواجهه من الشدائد مما يؤدي به إلى الهلاك هو وماله. وهذا مناسب لذكر الشدة التي كان يواجهها الرسول صلى الله عليه وسلم وقت نزول هذه السورة. وفي هذا التعبير كذلك " إظهار لعدم الاكتراث في إنفاق المال، وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع، فكأنه جعل المال الكثير ضائعا". (١) إذ الإهلاك أولى بالغرور والطغيان، وأنسب لجو المباهاة والفخر على المقام(٢) .

اللبد الكثير المجتمع من تلبد الشيء إذا اجتمع(٣). قال الزجاج: " لبد كثير بعضه قد لبد ببعض، وفُعَلٌ للكثرة"(٤) .

(١) الألوسي، روح المعاني، ٣٠/ ٤٩٢.

(٢) بنت الشاطئ، التفسير البياني، ١/١٨٠.

(٣) الراغب، المفردات، ٤٥٠.

(٤) الزجاج، معاني القران وإعرابه، ٥/ ٣٢٨.

المبحث العاشر: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ [سورة البلد: ٧]، والسر في إعادة التعبير

(أيحسب أن): كالتي سبقت. و(لم): حرف نفي وجزم وقلب، وعليه فالفعل (يره) مضارع لفظا وماض معنى[١]. يقول ابن قيم الجوزية في التبيان في أقسام القرآن: "أتى ها هنا بـ (لم) الدالة على المضي في مقابلة قوله. ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ [سورة البلد: ٦] فان ذلك في الماضي"[٢]. والمعنى أيظن أن أعماله خفيت على الله فلم يطلع عليها؟ فالله يعلم ما أنفق وفيما أنفق، وهو محاسب على ذلك. وقد توسع البيضاوي في معناها فقال: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ [سورة البلد: ٧]حين كان ينفق، أو بعد ذلك فيسأله عنه، والمعنى أن الله يراه فيجازيه أو يجده فيحاسبه عليه"[٣].

المبحث الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ [سورة البلد: ٨ – ٩]، والسر في خص هذه النعم بالذكر

(ألم نجعل)؟ بمعنى جعلنا لأن نفي النفي إثبات، وذلك لأن همزة الاستفهام فيها معنى النفي، ودخلت على لم وهي للنفي فاجتمع النفي مع النفي فصار إثباتا[٤]، بمعنى جعلنا، فصار الفعل في المعنى مثبتا وماضيا،

(١) ابن هشام، معني اللبيب، ١/٣٠٥.

(٢) ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القران، ٣٠.

(٣) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٨/ ٦٠٤.

(٤) الشنقيطي، أضواء البيان، ص ١٩٦١.

لأن لم حرف نفي وجزم وقلب، تقلب المضارع لفظا إلى ماض معنى، لذا جاز أن يعطف عليها وهديناه. وقد قرر سبحانه وتعالى بذلك ما ذكر فيما سبق من أن الله قادر على الإنسان ومطلع على فعله. يقول ابن قيم الجوزية: "ذكر برهانا مقدرا أنه سبحانه أحق بالرؤية، وأولى من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما، فكيف يعطيه البصر من لم يره؟ وكيف يعطيه آلة البيان من الشفتين واللسان فينطق ويبين عما في نفسه، ويأمر وينهى من لا يتكلم ولا يكلم، ولا يخاطب ولا يأمر ولا ينهى؟ وهل كمال المخلوق مستفاد إلا من كمال خالقه؟ ومن جعله عالما بنجدي الخير والشر _ وهما طريقاهما _ أليس هو أولى وأحق بالعلم منه"[1].

ومن حسن الاختيار والربط ذكر نعمة العينين في سياق الإنكار على العبد ظن أن الله لا يراه في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ [سورة البلد: ٥]، لأن العين آلة الرؤية ومن وهب العين حتما سيكون رائيا مطلعا على الأمور. وكذلك اختيار نعمة النطق مقابل قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ [سورة البلد: ٦]، فإن اللسان والشفتين هما آلة النطق. والغرض من هذا الربط إثبات قدرة الله على الرؤية والتعبير من باب أولى، ثم الإنكار على العبد الذي يتمتع بهذه النعم ثم يجرد الله خالقه ومانحه إياها منها.

المبحث الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [سورة البلد: ١٠]، والسر من التعبير بالنجدين

الهداية: الدلالة بلطف، وهديناه معطوفة على نجعل، وجاز عطف الماضي على المضارع لدخول (لم) على نجعل فصار ماضيا بالمعنى،

(١) ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القران، ص ٣٠-٣١.

وهداية الله على أوجه منها: هداية عامة لكل مكلف وهي المقصودة في هذه الآية، وهي الهداية بالأنبياء والرسل والقرآن، وهدايته للمؤمنين وتوفيقهم إلى الخير، وما من شانه ان يقودهم في الآخرة إلى الجنة[١] .

"وفي اختيار كلمة (هَدَيْنَاهُ) دون بيَّنا له أو أوضحنا تشير إلى أن الهدى ملحوظ فيه أنه تعالى ألهم الفطرة الإنسانية الإدراك المميز للخير والشر، وجعل لها الأدوات الحسية لهذا الإدراك"[٢] .

النجد: المرتفع من الأرض[٣]، والمقصود به هنا طريق الخير وطريق الشر. وفي اختيار لفظ النجدين دون السبيل أو الصراط كما في آيات أخرى حكمتان:

أولهما: أن النجد الطريق المرتفع، وبهذا الوصف يكون هذا الطريق واضحا للأبصار، فكأنه بمنح الإنسان نعمة البصر، وبهداية الله له أصبح الطريق واضحا كوضوح الطريق المرتفع للأبصار[٤] ،بحيث يرى الإنسان الطريقين ببصره، ويدركهما بما تهيأ له من الهداية والفطرة.

ثانيهما: أن النجد الطريق المرتفع، وفي سلوكه كثير من المشقة، وهذا المعنى مناسب لجو السورة التي تتحدث عن خلق الإنسان في كبد، كما أن طريق الخير والشر كليهما فيه صعوبة ومشقة[٥]، أما طريق الخير فلأنه حف بالمكاره، وأما طريق الشر فهو في حقيقته مشقة، وفي عاقبته مشقة.

---

(١) الراغب، المفردات، ٥١٦.

(٢) بنت الشاطئ، التفسير البياني، ١/١٨٢.

(٣) الزجاج، معاني القران، ٥/ ٣٢٩.

(٤) الرازي، مفاتيح الغيب، ١١/ ١٦٧.

(٥) البقاعي، نظم الدرر، ٨/ ٤٣١.

ومن لطائف التعبير أنه سبحانه عبر عن الإنعام بمنح الإنسان العينين واللسان والشفتين بـ (نجعل) بصيغة المضارع للدلالة على عنايته المتجددة للحفاظ على هذه النعم، وعبر عن الهداية بـ (هديناه) بصيغة الماضي للدلالة على تحقق نعمة الهداية.

في التعبير بـ (هديناه) إشارة إلى أن الخير والشر كامن في صميمه في صورة استعدادات، والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتوجهها هنا أو هناك. ولكنها لا تخلقها خلقا. لأنها مخلوقة فطرة، وكائنة طبعا، وكامنة إلهاما. وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان. هي التي تناط بها التبعة. فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها، وتغليبه على استعداد الشر. . فقد أفلح. ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [سورة الشمس: ٧ – ١٠][1].

هذه الإمكانات التي منحها الله للناس من شانها أن تعينه على الاهتداء للحق ومعرفة الله، منحه عينين تعاينان ما في الكون من دلائل القدرة والاتقان، ومنحه لسانا وشفتين يعبر فيهما عن مكنونات نفسه يفهم الآخرين ويُفهمهم، ويعيش حياة اجتماعية يدرك فيها من السنن ما يدل على وجود الله وقدرته، وبجانب هذا وذاك أضاء له دربه وجعل في نفسه نوازع يدرك بها الخير من الشر. غير أن بعض الناس عميت عيونهم عن الحق وانطمست فطرتهم الصافية الأصيلة وتبلدت حواسهم فعجزوا عن اقتحام العقبة التي تحول بينه وبين الجنة.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣٩١٨/٦.

المبحث الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [سورة البلد: ١١]، ومناسبة التعبير لجو السورة

اختلف أهل اللغة والتفسير في (لا) هنا على أقوال هي:

أولا: أنها نافية للفعل الماضي، أي: فلم يقتحم العقبة، واعترض على هذا القول بأن (لا) إذا نفت الفعل الماضي وجب تكرارها نحو قوله تعالى ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ [سورة القيامة: ٣١]، في حين لم تكرر هنا في قوله﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ [سورة البلد: ١٣ – ١٤]، وأجيب عن هذا الاعتراض بأنها مكررة في المعنى لأن (العقبة) مفسرة بأمرين: فك رقبة وإطعام مسكين، فكأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا فك رقبة ولا أطعم مسكينا"[(١)] . وأضاف الزجاج: " أن (لا) الثانية كأنها في الكلام، لأن قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [سورة البلد: ١٧]، تدل على معنى فلا اقتحم العقبة ولا آمن"[(٢)] . وأجيب كذلك بأن الأكثر في كلام العرب تكرارها، لكنه غير واجب وقد ذكر ابن هشام في المغني شواهد على ذلك. [(٣)] وقال الألوسي: "والمتيقن عندي أكثرية التكرار، وأما وجوبه فليس بمتيقن"[(٤)] .

ثانيا: قيل إن الفعل لا يراد به المضي بل هو بمعنى الاستقبال والمعنى هنا لا يقتحم، وإذا كان الفعل الماضي دالا على الاستقبال لم يلزم

(١) هذا ما اختاره الفراء، في معاني القرآن. ٣/ ٢٤٦، وأبو السعود، في إرشاد العقل السليم. ٦/ ٤٣٢، الزمخشري، في الكشاف ٤/ ٧٥٩.

(٢) الزجاج، معاني القران وإعرابه، ٣٢٩/٥ وذكر نحوه أبو حيان، في البحر المحيط، ٤٧١/٨.

(٣) لابن هشام، مغني اللبيب، ١/ ٢٧١.

(٤) الألوسي، روح المعاني، ٣٠/ ٤٧٩.

التكرار، مثل قولك: (والله لا فعلت كذا)[١] .

ثالثا: قال قوم: إنها للدعاء، والفعل مستقبل في المعنى نحو قولهم: (لا فض فوك ولا شلت يمنيك) والمعنى دعاء عليه أن لا يفعل خيرا، [٢] وهنا لا يلزم التكرار[٣] .

رابعا: قيل هي للاستفهام والتقدير، أفلا اقتحم العقبة. ورجح ابن عاشور هذا، وقال الاستفهام للإنكار[٤] .

خامسا: قيل هي للتحضيض بمعنى هلا اقتحم العقبة، ذكر هذا صاحب الجلالين[٥] وهو ضعيف؛ لأن (لا) وحدها وليس معها همزة لا تكون للتخصيص، قال أبو حيان: "لا نعرف أن لا وحدها تكون للتحضيض وليس معها الهمزة"[٦] .

والراجح فيما أرى الأول مع احتمال الثاني، ولعل العدول عن (لم) واختيار (لا) لإفادة هذين المعنيين، وفي ذلك من البلاغة ما فيه، وما أجمل تعليل العز بن عبد السلام لذلك حيث قال: "ويشكل النفي بـ (لا) وهي إنما تنفي الاستقبال، والجواب أنها بمعنى (لم)، والصحيح اشتراكهما.

---

(١) لابن هشام، مغني اللبيب، ١/ ٢٧٠.

(٢) أبو حيان، البحر المحيط، ٨/ ٤٧١

(٣) ابن هشام، مغني اللبيب، ١/ ٢٧٠.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣/ ٣١٤.

(٥) انظر الصاوي في حاشيته على الجلالين، ٦/ ٢٨٠ ونقله الرازي عن القفال، في مفاتيح الغيب، ١١/ ١٦٨.

(٦) أبو حيان، البحر المحيط، ٨/ ٤٧١.

وعدل إليها لأن النفي بها أبلغ لما تُوهمه من نفي الاستقبال في أصل الوضع، أو نجعلها على بابها، أي صفة هذا يقتضي أنه لا يقتحم العقبة أبدا، فيكون ذما له باعتبار صفته لا اعتبار عدم فعله، وتضمنها معنى (لم) فيكون الذم أيضا لعدم الفعل في الماضي"[١] .

ويحتمل كذلك الثالث؛ لأنه لما جمع الامتناع عن الخير في الماضي والمستقبل أصبحت تلك الصفة ملازمة له، واستحق بذلك الدعاء عليه بدوام هذه الصفة.

والاقتحام هو الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة، قال الراغب: "الاقتحام: توسط شدة مخيفة"[٢] .

والعقبة: طريق في الجبل وعر، والجمع عُقُب وعقاب[٣] . واستعارة لفظ الاقتحام للدلالة على معنى الدخول مناسب لاستعارة لفظ العقبة للدلالة على العمل الصالح. والمعنى لم يشكر تلك النعم بالأعمال الصالحة. واستعار لفظ الاقتحام والعقبة للدلالة على ملازمة العمل الصالح لما فيه من معاناة ومشقة ومجاهدة للنفس[٤] ، فالعمل الصالح شاق لذا سماه بالعقبة، ودخول العقبة فيه مشقة لذلك عبر عنه بالاقتحام، واختيار لفظ الاقتحام مناسب لقوله تعالى ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾ [سورة البلد: ١٠] حيث فسرناه بالطريق الصاعد الذي في سلوكه مشقة، وهذه الألفاظ مناسبة

(١) العز بن عبد السلام، الفوائد في مشكل القران، ص ٢٥٥.

(٢) الراغب، المفردات، ص ٣٩٥.

(٣) الراغب، المفردات ص ٣٤٤.

(٤) الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٧٥٩. والبيضاوي، معالم التنزيل، ٨/ ٦٠٥.

لجو السورة ومناسبتها والحديث فيها عن مكابدة الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته، والقسم فيها على أن الإنسان خلق في كبد. يقول الألوسي: " العقبة الطريق الوعر في الجبل. . وهي هنا استعارة لما فسرت به من الأعمال الشاقة المرتفعة القدر عند الله، والقرينة ظاهرة واثبات الاقتحام المراد به الفعل، والكسب ترشيح، ويجوز أن يكون قد جعل فعل ما ذكر اقتحاما وصعودا شاقا، وذكره بعد النجدين جعل الاستعارة في الذروة العليا من البلاغة، والمراد ذم المحدث عنه بأنه مقصر في ما أنعم الله به عليه من النعم العظام"[1] .

المبحث الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢﴾ [سورة البلد: ١٢]، والغرض البياني من هذا التعبير

(ما) الأولى والثانية للاستفهام، والمعنى أي شيء أعلمك ما هي العقبة. والغرض من هذا الأسلوب التفخيم والتعظيم والتهويل ومثله ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣﴾ [سورة القارعة: ٣]، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾ [سورة الحاقة: ٣]، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥﴾ [سورة الهمزة: ٥، يقول البقاعي: " وما أدراك أيها السامع لكلامنا. . . (ما العقبة): أي أنك لم تعرف كنه صعوبتها وعظمة ثوابها، فلما تفرغ القلب بالاستفهام عما لا يعرفه، وكان الإنسان أشهى ما إليه تَعرُّف ما أشكل عليه، فتشوفت النفوس إلى علمها"[2] .

فالغرض تشويق السامع إلى معنى "العقبة التي تقف بينه وبين الجنة. ولو تخطاها لوصل، وفي تصويرها كذلك حافز قوي، واستجاشة للقلب

(١) الألوسي، روح المعاني ٣٠/ ٤٩٣.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ٨/ ٤٣٢.

البشري، وتحريك له ليقتحم العقبة وقد وضحت ووضح معها أنها الحائل بينه وبين هذا المكسب العظيم. ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة البلد: ١١]ففيه تحضيض ودفع وترغيب! ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ [سورة البلد: ١٢] . إنه ليس تضخيم العقبة، ولكنه تعظيم شأنها عند اللّه، ليحفز به الإنسان إلى اقتحامها وتخطيها مهما تتطلب من جهد ومن كبد. فالكبد واقع. واقع. وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتي ثمره ويعوض المقتحم عما يكابده، ولا يذهب ضياعا وهو واقع. واقع على كل حال"[١] .

المبحث الخامس عشر: قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [سورة البلد: ١٣]، وأثر نظام العبودية على المجتمع

الفك: التخليص، قال الرازي: "الفك فرق يزيل المنع كفك القيد والغل، وفك الرقبة فرق بينها وبين صفة الرق، بإيجاب الحرية وإبطال العبودية. . . وقال: المراد بالرقبة الإنسان مجازا من إطلاق الجزء على الكل، واختيار الرقبة دون سائر الأعضاء للدلالة على الإنسان لأن الغالب أن يربط الأسير من رقبته، فصار فك الرقبة دالا على إطلاق الأسير، وقيل كانت عادة العرب في الأسارى شد رقابهم وأيديهم فجرى ذلك فيهم وإن لم تشد، ثم سمي إطلاق الأسير فكا"[٢] .

"ويبدأ كشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذي كانت البيئة الخاصة

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/٣٩١١.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ١١/ ١٦٩.

التي تواجهها الدعوة في أمسّ الحاجة إليه: فك الرقاب العانية، وإطعام الطعام والحاجة إليه ماسة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة الجاحدة المتكالبة، وينتهي بالأمر الذي لا يتعلق ببيئة خاصة ولا بزمان خاص، والذي تواجهه النفوس جميعا، وهي تتخطى العقبة إلى النجاة: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [سورة البلد: ١٧]. . . وقد نزل هذا النص والإسلام في مكة محاصر وليست له دولة تقوم على شريعته. وكان الرق عاما في الجزيرة العربية وفي العالم من حولها. وكان الرقيق يعاملون معاملة قاسية على الإطلاق. فلما أن أسلم بعضهم كعمار بن ياسر وأسرته، وبلال بن رباح، وصهيب. . وغيرهم– رضي الله عنهم جميعا– اشتد عليهم البلاء من سادتهم العتاة، وأسلموهم إلى تعذيب لا يطاق. وبدا أن طريق الخلاص لهم هو تحريرهم بشرائهم من سادتهم القساة، فكان أبو بكر– رضي الله عنه– هو السابق كعادته دائما إلى التلبية والاستجابة في ثبات وطمأنينة واستقامة"[1].

واستخدام هذا التعبير ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [سورة البلد: ١٣]، فيه تصوير للذل والمهانة التي كان يعشها الرقيق في تلك العصور، كانوا يعاملون كحيوانات ويربطون من أعناقهم، ولو لم يكن ذلك حقيقة، فإن حال الرقيق كحال الدواب التي تربط وتقاد من أعناقها. إنها صورة مؤثرة تعكس حالة من أشد حالات الكبد التي يعيشها إنسان يمتلك كل مقومات الإنسانية التي منحها الله إياها سوى أنه مسكين ليس بيده شيء إلا التراب. وبالمقابل

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/٣٩١٢.

تعكس حال المترف المتجبر المغتر بقوة ومال كثير يهلكه في سبيل تحقيق أسباب القوة ولو على حساب الضعفاء الفقراء. وهذه الصورة تنسجم تماما مع الصورة العامة التي ترسمها سورة البلد.

ويشمل فك الرقبة كذلك تحرير الرقيق، وسمي العتق فكا لأن الرق كالقيد، وسمي الرقيق رقبة لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته. وفي اختيار هذا التعبير بيان لشدة حال هؤلاء، والكبد والمشقة فيهم على أظهر ما يكون، وهذا مناسب لجو السورة.

وفك: خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير هو فك والمعنى اقتحام العقبة هو فك، لأن قوله وما أدراك تقديره وما أدراك ما اقتحام العقبة، فيكون المبتدأ راجعا إلى المضاف المقدر (وهو اقتحام)، وإنما احتيج إلى تقدير مضاف؛ لأنه لو لم يقدر وجعل (فك رقبة) تفسيرا لنفس العقبة للزم تفسير أحد المتباينين وهو (العقبة) بالآخر وهو (الفك)؛ لأن الفك مصدر، والعقبة ليس كذلك وبتقدير المضاف يندفع المحظور[1] .

المبحث السادس عشر: قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ [سورة البلد: ١٤]، وسر خص الإطعام بهذا اليوم

(أو): للتخيير، [2] واختيرت هنا ولم تختر (و) لئلا يتوهم أن العمل الصالح المطلوب إنما يكون بالجمع بين هذه الأشياء معا، بل بأي واحد منها.

(١) شيخ زادة في حاشية على البيضاوي، أنور التنزيل وأسرار التأويل، ٨/ ٦٠٥-٦٠٦ بتصرف.

(٢) ذهب إليه أبو حيان، في البحر المحيط، ٨/ ٤٧١.

والمسغبة: الجوع مع التعب والعطش، وهي خاصة بما كان جوعا عاما وهي المجاعة، وهذا الفرق بين المسغبة والسغب إذ السغب الجوع، ويكون خاصا أو عاما، فإن كان عاما سمي مسغبة. [1] **والمراد بيوم ذي مسغبة الزمان لا النهار المعروف، وإضافة (ذي) إلى مسغبة تفيد اختصاص ذلك اليوم بالمسغبة فهو يوم مجاعة عامة**[2] .

ووجه تخصيص اليوم ذي المسغبة بالإطعام فيه هو أن الناس في زمان المجاعة يشتد شحهم بالمال خشية تطاول زمن المجاعة، والاحتياج إلى القوت، فيكون الإطعام في ذلك الزمن أشد على النفس، [3] **وهذا التعبير مناسب لقوله فلا اقتحم العقبة، لأن في هذا العمل ما فيه من الشدة التي تحتاج إلى اقتحام وقوة في نفس المنفق.**

المبحث السابع عشر: قوله تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥﴾ [سورة البلد: ١٥]، والغرض من خص اليتيم القريب

اليتم انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه[4] .

والمقربة القرابة وخص اليتيم بصفة (ذا مقربة) ليجمع سببين للحث

(١) الراغب، المفردات ص ٢٣٩. والبقاعي، ونظم الدرر ٨ / ٤٣٣. والألوسي، وروح المعاني ٣٠/ ٤٩٥.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٣٠/ ٣١٦.

(٣) ذكره الرازي، في مفاتيح الغيب، ١١/ ١٧٠ والصاوي في حاشيته على الجلالين ٦/ ٢٨٠ وابن عاشور في التحرير والتنوير، ٣٠/ ٣١٦.

(٤) الراغب، المفردات، ٥٥١.

على الإنفاق عليه: اليتم والقرابة، فيجمع بهذا العمل الصالح صدقة على يتيم، وصلة لقريب. قال الرازي: "ويدخل فيه قرب الجوار كما يدخل قرب النسب"[١] .

وخص اليتيم بالذكر، لأن الأيتام بالعادة فئة ضعيفة، تفتقد السند الأساسي في المجتمع وهو الأب، وكان الأيتام قبل الإسلام طبقة مستضعفة مهضومة الحقوق، يتعدون على أموالهم ويضنون عليهم بحقوقهم، حتى إن اليتيمة كانت تنكح بلا مهر، ولذلك حث الإسلام على رعاية الأيتام. . بكفالتهم، وتنمية أموالهم، وحفظ حقوقهم.

المبحث الثامن عشر: قوله تعالى: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ ١٦﴾ [سورة البلد: ١٦]، والغرض من خص المسكين بالصدقة دون سائر المحتاجين

قيل المِسْكِين الذي لا شيء عنده[٢] .

المتربة مأخوذة من (تَرِب) إذا افتقر، ومعناه التصق بالتراب. قال الزجاج يعنى أنه من فقره التصق بالتراب[٣]، وقيل هم المطروحون على ظهر الطريق قعودا على التراب لا بيوت لهم[٤] ، يقال ترب إذا نام على التراب إذا لم يكن له ما يفترشه من شدة الفقر، وهذا التعبير كناية عن شدة الفقر،

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ١١/ ١٧١.

(٢) الراغب، المفردات، ٢٤٣.

(٣) الزجاج، معاني القرآن، ٥/ ٢٣٠.

(٤) أبو حيان، البحر المحيط، ٨/ ٤٧١.

وقد تكون كناية عن كثرة المال، يقال: فلان أترب أي صار كثير المال ككثرة التراب، ويقال تربت يداك وتربت يمينك كناية عن الراحة، لكن هذه الكناية هنا غير مقصودة.

وجمع بذكر اليتيم القريب والمسكين ذوي الحاجة عموما، ووصف اليتيم بالقرب لإثارة العطف عليه، ووصف المسكين بالمتربة لإثارة اللطف به[1].

وذكر الرقبة واليتم والمسكنة مناسب لجو السورة وهو الحديث عن الكبد، إذ الكبد ظاهر في كل صنف من هذه الأصناف، وذكر الإنفاق في هذه الجهات مناسب لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۞﴾ [سورة البلد: ٦] حيث ذم في هذه إنفاق المال في غير وجوه البر بدون حساب، ثم ذكر بعد ذلك وجوه البر التي ينبغي إنفاق المال فيها. "والإطعام في يوم المجاعة الذي يعز فيه المال هو محك لحقيقة الإيمان. وكذلك إطعام المسكين ذي المتربة – أي اللاصق بالتراب من بؤسه وشدة حاله – في يوم المسغبة يقدمه السياق القرآني خطوة في سبيل اقتحام العقبة، لأنه محك للمشاعر الإيمانية من رحمة وعطف وتكافل وإيثار، ومراقبة للّه في عياله، في يوم الشدة والمجاعة والحاجة. وهاتان الخطوتان: فك الرقاب وإطعام الطعام كانتا من إيحاءات البيئة الملحة، وإن كانت لهما صفة العموم". [2] والحث على بر هذه الأصناف مناسب للآية التالية وهي:

(١) البقاعي، نظم الدرر، ٨/ ٤٣٣.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/٣٩١٣.

المبحث التاسع عشر: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [سورة البلد: ١٧]، ومقارنة بين هذا الموضوع وشبيهه في سورة العصر

(ثم): عطف على المنفي في قوله تعالى فلا اقتحم العقبة، والعطف بـ(ثم) يفيد التراخي، ولكنها هنا ليست للتراخي الزمني لأن الإيمان متقدم على هذه الأعمال لا متأخر عنها، بل تفيد التراخي الرتبي فرتبة الإيمان متراخية عن رتبة العتق شرفا وفضلا. يقول الزمخشري: " جاء بـ(ثم) لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لا في الوقت لأن الإيمان هو السابق المقدم على غيره ولا يثبت عمل صالح إلا به"[(١)] .

والمقصود الحث على إعانة الضعفاء بفك الرقاب، وإطعام الجياع عندما تمس حاجة المجتمع كاملا للطعام وبالذات اليتيم القريب، والفقير الذي لا يملك شيئًا، وفوق ذلك وقبله أن يكون من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة.

والتعبير بقوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [سورة البلد: ١٧] أبلغ من القول ثم كان مؤمنا لأن كونه من الذين آمنوا أدل على ثبوت الإيمان من الوصف بمؤمن؛ لأن صفة الجماعة أقوى من أجل كثرة الموصوفين بها[(٢)] .

ويبدو لي إضافة لذلك أن اختيار هذا التعبير لمناسبة ما سيذكر لاحقا في قوله ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾ لأن التواصي إنما يكون بين الجماعة، وعليه فإن

(١) الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٧٦٠.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٠/ ٣١٩.

المطلوب أن يكون الإنسان مؤمنا ضمن جماعة المؤمنين، يقوم بما عليه من واجبات فردية والتي منها الصبر، ويقوم بالواجبات الاجتماعية والتي منها التواصي بالصبر. ورحمة المؤمنين الذين ينتمي إليهم ورعاية الرقيق واليتيم والمسكين الذين هم منه وهو منهم، والتواصي مع إخوانه المؤمنين بذلك.

والتواصي بالصبر: يعني أن يوصي بعضهم بعضا بالصبر على الإيمان والثبات عليه وعلى الطاعات والمحن التي يبتلى بها المؤمن، والتواصي بالواجبات الاجتماعية وعلى رأسها التواصي بالتراحم الاجتماعي. والتواصي بالصبر رتبة أعلى من الصبر، وكذلك التواصي بالمرحمة، لأن في التواصي إشاعة لهذه الصفة لتؤتي ثمارها ليس على الفرد وحده بل على سائر المجتمع.

وذكر التواصي بالصبر هنا مناسب لذكر ما لاقاه الرسول والمؤمنون من الأذى الوارد في قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ [سورة البلد: ٢] على معنى مستحل إيذاؤك، ومناسب كذلك لذكر خلق الإنسان في مشقة وتعب في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [سورة البلد: ٤]، فكلا الأمرين محتاج إلى صبر وتواص به، وهو مناسب كذلك لذكر الثبات على طريق الحق، وسلوك نجد الهداية والابتعاد عن نجد الضلال في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ البلد: ١٠، ومناسب كذلك لذكر لزوم العمل الصالح وإن كان شاقا في قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ [سورة البلد: ١١].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [سورة البلد: ١٧] أي يوصي بعضهم بعضا بالرحمة، وهذه الآية مناسبة للقسم بالوالد والولد في أول السورة لأنهما عنوان الرحمة، وهذه كذلك مناسبة للحث على اقتحام العقبة بما ذكر من طاعات كمثل فك

الرقبة والإطعام في المسغبة اليتيم القريب والمسكين المترب، كل ذلك لا بد للزومه والثبات عليه من التواصي بالرحمة. وهذه الصفات الثلاثة أقصد الرق واليتم والمسكنة مرتبطة بقوله (وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ) لأن الإنسان بها في أمس الحاجة إلى الصبر.

وقد أعيد الفعل وحرف الجر في قوله تعالى: (وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ) للتوكيد على أهمية كل من الأمرين: الصبر والرحمة. وقدّم التواصي بالصبر على التواصي بالمرحمة لأنه في أول السورة قدم ما يحتاج إلى صبر في قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ [سورة البلد: ٢]، وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ البلد: ٤ على ما يحتاج إلى رحمة في قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [سورة البلد: ١٣] وما بعدها.

"والصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة، ولاقتحام العقبة بصفة خاصة. والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته. درجة تماسك الجماعة المؤمنة، وتواصيها على معنى الصبر، وتعاونها على تكاليف الإيمان. . . وهو إيحاء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة. وهو ألا يكون عنصر تخذيل بل عنصر تثبيت، ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام ولا يكون مثار جزع بل مهبط طمأنينة. وكذلك التواصي بالمرحمة. فهو أمر زائد على المرحمة. إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به، والتحاض عليه، واتخاذه واجبا جماعيا فرديا في الوقت ذاته، يتعارف عليه الجميع، ويتعاون عليه الجميع "[1].

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/٣٩١٣.

وها هنا "كشف عن معنى العقبة وبين طبيعتها بالأمر الذي كانت البيئة الخاصة التي تواجهها الدعوة في أمسّ الحاجة إليه: فك الرقاب العانية وإطعام الطعام، والحاجة إليه ماسة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة الجاحدة المتكالبة، وينتهي بالأمر الذي لا يتعلق ببيئة خاصة ولا بزمان خاص، والذي تواجهه النفوس جميعا، وهي تتخطى العقبة إلى النجاة: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [سورة البلد: ١٧"][1].

بدأت السورة بوصف مؤثر وصورة واضحة لحال المسلمين في أول دعوتهم، وهذا ينسحب على حال الدعوات عندما تكون ضعيفة مهزومة مستعبدة، صورة مؤثرة يصفها قوله تعالى ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ [سورة البلد: ٢]، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني القسوة، وصورة مقابلة لحال طغمة حاكمة مستبدة مستعبدة، نستشفها من قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [سورة البلد: ١٣ – ١٦]وما في هذا التعبير من دلالة على وجود عبيد مقهورين مقبورين لا يملكون من أمرهم شيئا، ويتامى جائعين ضائعين على الرغم من وجود أقاربهم، في جو من الحاجة العامة والماسة (فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ). فقير ليس له إلا التراب وهو تعبير يشف عن ضعف ليس دونه ضعف وفقر ما بعده فقر، في مجتمع قاس لا ينصر ضعيفا ولو كان مملوكا مطيعا، ولا يعيل يتيما ولو كان قريبا فقيرا، ولا يقيل مسكينا ولو كان تَرِبا لا يلوي على شيء. ثلاثة أصناف تعطي صورة تثير مشاعر الشفقة والتعاطف مع هذه الطبقة المقهورة،

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣٩١٢/٦.

لحد أوجب سن التشريعات والأحكام للقضاء على هذه الظاهرة.

بعد هذه الصورة بينت السورة وسائل التحرر ومقومات النهوض، وهي تبدأ أول ما تبدأ بالسعي للحرية وهي أول مقومات النهوض، ثم التكافل الاقتصادي (أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)، ثم التكافل الاجتماعي الذي يبدأ أولا بكفالة أصحاب الحاجات من الأقارب (يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ)، ثم التكافل الاجتماعي في دائرته الأوسع بين أبناء المجتمع كلهم (أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ)، ثم غرس المبادئ والقيم ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [سورة البلد: ١٧]، والتعاون على نشرها والتواصي بها والصبر عليها وعلى كل المصاعب التي يواجهها الدعاة في طريق الدعوة إلى الحق وذلك وحده لا يكفي بل لا بد من التواصي به والحث عليه، ولا بد كذلك من شيوع الرحمة والتحلي بها والدعوة إليها بما في ذلك أن يصبر الدعاة بعضُهم على بعضهم، ويأخذ بعضُهم بعضا باللين فيحمل كل واحد على قدر وسعه ولا يكلف فوق طاقته.

والعطف بثم كما قال كثير من المفسرين لا يفيد الترتيب، وهو قول يسعفنا في هذا المقام لأن الأصل أن تكون المبادئ والأفكار في البداية، غير أنه قد يقال بل الحرية والأمن الاقتصادي الذي يؤمن الحاجات الأساسية ولقمة العيش هي البداية، والصحيح أن هذه كلها مقومات أساسية ولا يمكن أن تقدم واحدة على الأخرى؛ لذلك قلت الترتيب هنا غير مقصود.

"ومن لطائف البيان هذا الترتيب لخطوات اقتحام العقبة ومراحل النضال من أجل صلاح الإنسان وخير الجماعة: بدأ بفك الرقبة، ولهذا البدء دلالته الصريحة عن أن تحرير الإنسانية من أغلال الرق هو أول خطوة

في النضال الصعب من أجل الوجود الكريم الجدير بالإنسان، فليس شيء آخر بالذي يسبق رد الكرامة الآدمية للإنسانية. وكل إصلاح لخير البشر والمجتمع إنما يأتي بعد أن نرد إلى الإنسانية اعتبارها المهدر بالرق. . . هي آيات العدالة الاجتماعية، لتصحيح الأوضاع المادية التي أباحت وجود مقتدر ذي مال لبد، ويتيم جائع ذي مقربة أو مسكين ذي متربة. والقرآن يضع هذه العدالة الاجتماعية تالية لفك الرقبة، ويأتي بها في مساق البيان لاقتحام العقبة، مقدراً ما في تصحيح هذا الوضع الفاسد من صعوبة، وما يتطلبه من مجاهده ومكابدة"[1].

ومن لطائف متشابه القرآن ما بين آية البلد هذه ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [سورة البلد: ١٧]، مع آية العصر وهي ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر: ٣]، فذكر في هذه السورة مع الصبر الرحمة وأخرها عليه، بينما ذكر في العصر مع الصبر الحق وقدمه عليه. وذكر الرحمة هنا مناسب لجو هذه السورة التي ذكر فيها الرق واليتم والمسكنة، بينما ذكر الحق مناسب لجو سورة العصر التي ذكر فيها خسران الإنسان عموما لا يستثنى من ذلك إلا فئة، وهذه الفئة ليست إلا من عرف الحق، فمن عرفه عرف كل معروف دونه. وتأخير الرحمة على الصبر في هذه السورة لأن الصبر في سياق هذه السورة أظهر، بل إن محور السورة كلها يدور حول هذه الصفة وهي خلق الإنسان في كبد، أما الرحمة فهي المحور الثاني في هذه السورة. أما في سورة العصر فالمحور الأهم هو معرفة الحق لأنه وصف الإنسان بالخسران إلا من تواصوا بهذه الصفة[2].

(١) عن بنت الشاطئ، التفسير البياني، ١/١٨٦-١٨٨. بتصرف واختصار.

(٢) فاضل السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص ٢٧٥.

المبحث العشرون: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨﴾ [سورة البلد: ١٨] والسر في التعبير ب(أولئك)

الإشارة بأولئك إلى المتصفين بالأعمال التي تقدمت، وهم الذين يفكون الرقبة، ويطعمون اليتيم والمسكين، ويتواصون بالصبر والمرحمة، واستخدام اسم الإشارة للبعيد للدلالة على بعد مكانتهم وعلو منزلتهم.

والميمنة من اليمن وهو إما الخير والبركة، أو جهة اليمين التي تقابل اليسار، وهي الجهة التي يرمز بها للمؤمنين، وقد يقصد بهم أصحاب اليمين الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم، أو أصحاب الخير إذ اليمين يكنى به عن فعل الخير[1]. وإيثار لفظ الميمنة في وصفهم لأنه يحمل عدة معاني حميدة للمبالغة في مدحهم. والتعبير بأصحاب الميمنة يفيد بالإضافة إلى كونهم مقيمين فيها اختصاصهم بملكها.

المبحث الحادي والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩﴾ [سورة البلد: ١٩]، ومقارنته مع الإشارة للمؤمنين

والذين كفروا إشارة إلى الفريق المقابل للمؤمنين، وإيثار ضمير الإشارة إلى الحاضر المشاهد مع المؤمنين ومع الكفار ضمير الغائب؛ لأن ذكرهم باسم الإشارة تكريم لهم بأنهم حاضرون عنده تعالى في مقام كرامته، وذكرهم بما يشار به إلى البعيد تعظيم لهم بالإشارة إلى علو درجاتهم

(١) الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٧٦١.

وارتفاعها على درجة أضدادهم، فإن درجة من حضر عنده تعالى تعلو على درجة من غاب عنه، وذكر الكافرين بضمير الغائب إشارة إلى أنهم غيب عن مقام كرامته تعالى وشرف الحضور عنده.(١)

والإشارة لهم بـ(هُمْ): للمبالغة في ذمهم بوصف الكفر وكونهم أصحاب المشأمة، ولفظ أصحاب على نحو ما ذكر في أصحاب الميمنة. وضمير الفصل لإفادة الحصر وكونهم أهلها حصرا بما اتصفوا به من صفات، يقول الألوسي: " جيء بضمير الفصل معهم لإفادة الحصر". (٢)

و(الْمَشْأَمَةِ) من الشؤم وهي جهة الشمال، أو الشؤم الذي وهو ضد اليمن، وأصحاب المشأمة أصحاب جهة الشمال التي فيها الأشقياء، أو الذين يؤتون صحائفهم بشمالهم أو أصحاب الشؤم على أنفسهم وغيرهم. (٣) **ووصفها بالمشأمة لأنها تحمل عدة معاني ذميمة للمبالغة في ذمهم.**

واكتفى بهذه الصفة ولم يزد عليها بوصفهم بما يناقض ما وصف به المؤمنين ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [سورة البلد: ١٧،]. لأن صفة الكفر تكفي في الذم عما سواها، فليس بعد الكفر ذنب وليس مع الكفر طاعة. ولا حسنة مع الكفر. ولا سيئة سوى الكفر. فإذا سلبوا الإيمان سلبوا معه كل حسنة، وإذا وصفوا بالكفر وصفوا معه بكل سيئة.

(١) شيخ زادة في حاشيته على البيضاوي، ٨/ ٦٠٧، بتصرف.

(٢) الألوسي، روح المعاني، ٣٠/ ٤٩٨.

(٣) الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٧٦١.

المبحث الثاني والعشرون: قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ [سورة البلد: ٢٠]، والسر في التعبير ب (عليهم)

على الكفار المذكورين في الآية السابقة. ومؤصدة من آصدت الباب إذا أغلقته.[١] والمراد أن النار مغلقة عليهم والقصد تشديد العذاب. وصرح بعذاب الكفار ولم يصرح بجزاء المؤمنين لأنه أنسب للسياق[٢] وهو ذكر الكبد والعقبة وهذا يناسبه ذكر العذاب لا النعيم.

وقدم الجار والمجرور لإفادة الحصر فإن النار مؤصدة على الكفار حصرا دون سواهم، أما من سواهم من المؤمنين العصاة فقد يخرجون بعد توفية ما عليهم من جزاء.

(١) الزجاج، معاني القرآن، ٥/ ٣٣٠.

(٢) الألوسي، روح المعاني، ٣٠/ ٤٩٨.

الخاتمة

قدمت سورة البلد نموذجا للإعجاز القرآن البياني، يظهر هذا واضحا من خلال فصاحة ألفاظ السورة وبلاغة عباراتها وجمال نظمها وتناسق موضوعاتها، بل أنك تجد كل الموضوعات التي طرحتها السورة تنتظم بعقد فريد لتشكل موضوعا واحدا مترابطا، بدءا من أسلوب القسم، ثم اختيار لفظ (حلٌّ) وما يتضمنه من احتمالات توسع معنى النص، ثم البلاغة في إظهار (بهذا البلد) مع أن حقها الإضمار، والبلاغة في أسلوب الاستفهام ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ [سورة البلد: ٥]. وحسن اختيار العينين واللسان والشفتين كأمثلة على نعم الله على الإنسان، ومناسبة اختيار لفظ (النجدين) لجو السورة، والبلاغة في أسلوب الاستفهام عن (العقبة)، حسن اختيار الرق واليتم والمسكنة كأمثلة على المحتاجين وصلة ذلك بجو السورة، وبلاغة أسلوب المقارنة بين ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [سورة البلد: ١٧]، مع شبيهتها في سورة العصر، وفي الدقة التي بدت من خلال الصورتين المتقابلتين لأصحاب اليمين وأصحاب الشمال في نهاية السورة.

وأبرزت الدراسة المكانة الدينية لمكة المكرمة في نفوس المسلمين لسببين: الأول أنها بلدة معظمة بحرمها الذي شرفها الله به، والثاني حلول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وتعرضه للأذى في سبيل الدعوة، وهذا من شأنه أن يعزز محبتها في نفوس المسلمين.

وكشفت الدراسة عن الصورة المؤثرة التي عرضتها السورة لبداية الدعوة الإسلامية، حيث استحل المشركون دم نبينا محمد صلى الله عليه

وسلم، وفي هذا الجو الذي يمثل ذروة المشقة والكبد تقرر السورة حقيقة اجتماعية يسلي الله بها نبيه ويطمئنه على أنه في حلّ مما يفعل قومه في منكرات، ويعده بأنه سيفتح له هذا البلد الحرام ويحل له القصاص ممن استحلوا دمه بادئا، وهذا من شأنه أن يطيب نفوس المستضعفين، ويثير الأمل في نفوسهم، ويمنيهم بالنصر المحقق، ويحلُّهم من المؤاخذة بما يفسد المشركون.

ونوهت الدراسة إلى المشقة التي خلق الإنسان فيها من خلال القسم على أنه خلق في كبد بالوالد والولد وهما عنوان المشقة والكبد، فالمولودية كبد من أولها والوالدية كبد إلى آخرها، وهذا تذكير بطبيعة نفسية من شأنها تسلية النبي صلى الله عليه وسلم والمستضعفين من المسلمين.

ونوهت الدراسة إلى مرض نفسي يصيب الإنسان المتجبر يدفعه لأن يتطاول على ربه، ويعتدي على عباده، مع أنه ضعيف أمام قدرة الله، لكنه لجهله يظن أنه لن يقدر عليه أحد لمّا اغتر بما أنفق من مال، وظن أن لم يره أحد. مع أنه في غاية الضعف وأمس الحاجة إلى ربه صاحب القوة ومالك العطاء والهادي إلى السبيل السواء.

ونوهت الدراسة إلى آفة آفات النفس البشرية، آفة أن لا يقابل الإنعام والإحسان بالاعتراف والامتنان والالتزام بأمر صاحب الأمر ولو كان فيه مشقة وعناء ولو كان أشبه باقتحام عقبة كأداء.

وكشفت الدراسة عن صورة منفرة لنفسية الجاحد الذي تنكر وتكبر، ولم ينفق في سبيل الخير وعون الضعفاء المكابدين، ولا آمن ولا عمل صالحا، ولا كان من الذين تواصوا بالصبر، ولا كان ممن تواصوا بالمرحمة.

وقدمت صورتين متقابلتين لفريقين من الناس: الصالحين الذين سمعوا الأوامر فالتزموها وهؤلاء إلى اليمين بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معاني الخير، وآخرين سمعوا وعصوا وهؤلاء إلى الشمال بكل ما تحتمله هذه الكلمة من معاني الشر، أعظمها نار تغلق عليهم فلا يخرجون منها.

التوصيات:

١- إجراء مثل هذه الدراسات على باقي سور القرآن.

٢- إجراء دراسات تكشف عن الدلالات النفسية والاجتماعية الموجودة في سور القرآن.

المراجع

١- ابن الأثير، ضياء الدين (٦٣٧)، المثل السائر في آداب الكاتب والشاعر، تحقيق احمد الحوفي وبدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر الأولى ١٩٦٢.

٢- ابن الزبير الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي أبو جعفر الغرناطي، (٧٠٨ هـ، ١٣٠٨ م)، ملاك التأويل، تحقيق سعيد الفلاح، دار العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٣.

٣- ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد أبو زرعة، حجة القراءات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢ الثانية، سعيد الأفغاني.

٤- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد (١٩٧٣م)، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ بيروت الأولى ٢٠٠٠-١٤٠١.

٥- ابن عطية، محمد بن عبد الحق الأندلسي (٥٤١)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار ابن حزم، بيروت، الأولى، ٢٠٠٢.

٦- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (٧٥١)، التبيان في أقسام القرآن، تحقيق علي محمد دندل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠١.

٧- ابن هشام، عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصاري المصري (٧٦١)، مغني اللبيب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا – بيروت ١٩٩١.

٨- أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (٩٨٢)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تحقيق عبد اللطيف عبد

الرحمن، دار الكتب العلمية ١٩٩٩.

٩- أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، (٧٥٤)، البحر المحيط، تحقيق عادل احمد، دار الكتب العلمية، الأولى، ٢٠٠١.

١٠- الألوسي، محمود البغدادي (١٢٧٠هـ)، روح المعاني، ، تحقيق محمد احمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٠.

١١- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٢- البقاعي، أبو الحسن إبراهيم بن عمر (٨٨٥)، نظم الدرر، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٥.

١٣- بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، الطبعة السابعة.

١٤- البيضاوي، عبد الله بن عمر (٦٩١)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل. وحاشية شيخ زاده عليه، تحقيق محمد شاهين، دار الكتب العلمية الأولى ١٩٩٩

١٥- بيومي، محمد رجب، خطوات التفسير البياني، سلسلة البحوث الإسلامية، السنة الثالثة الكتاب الثاني والأربعون، ١٩٧١.

١٦- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١)، دلائل الإعجاز، تحقيق، عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، الأولى، ٢٠٠١.

١٧- الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، (٤٢٠هـ) درة

التنزيل وغرة التأويل، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة بيروت ٢٠٠٢.

١٨- الراغب الأصفهاني (٥٠٢)، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القران، دار المعرفة بيروت الثالثة ٢٠٠١.

١٩- الرُّماني، علي بن عبد الله، (٣٨٤هـ)، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، القاهرة، دار المعارف.

٢٠- الزجاج، أبو إبراهيم بن السري (٣١١)، معاني القران وإعرابه، تحقيق عبد الجليل شلبي، دار الحديث القاهرة ١٩٩٧.

٢١- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق (٣٣٧)، حروف المعاني والصفات، تحقيق علي الحمد، مؤسسة الرسالة لبنان، الأولى، ١٩٨٤.

٢٢- الزمخشري، محمود بن عمر (٥٢٨ هـ) الكشاف، دار الريان للتراث الطبعة الثالثة١٩٨٧.

٢٣- السكاكي، أبو يوسف بن محمد بن علي، (٦٢٦ هـ)، مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، الأولى.

٢٤- السمين الحلبي، احمد بن يوسف(٧٥٦هـ)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق احمد الخراط، دار القلم دمشق ١٩٩٤.

٢٥- سيد قطب، سيد قطب إبراهيم (١٣٨٧هـ-١٩٦٧م)، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة.

٢٦- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١)، الإتقان في

علوم القرآن، تحقيق عصام فارس، دار الجيل بيروت، الأولى ١٩٨٨.

٢٧- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجنكي الشنقيطي (١٣٩٣)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ومعه دفع إيهام الإضراب عن آي الكتاب، تحقيق الشيخ صلاح الدين العلايلي، دار إحياء التراث ١٩٩٦ الأولى.

٢٨- الشوكاني، محمد بن علي، (١٢٥٠هـ)، فتح القدير، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، الثانية، ١٩٩٧.

٢٩- الصاوي، تفسير الجلالين وحاشية الصاوي عليه، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، الرياض، دار النفائس.

٣٠- العز بن عبد السلام، عبد العزيز بن عبد السلام ٦٦٠، فوائد في مشكل القران، تحقيق سعيد رضوان، دار الشروق الطبعة الثانية، ص ٢٥٥.

٣١- الفخر الرازي، محمد بن عمر (٦٠٦)، مفاتيح الغيب المسمى أيضا التفسير الكبير، دار إحياء التراث بيروت الثالثة ١٩٩٩.

٣٢- الفراء، أبو زكريا يحي بن زياد، (٢٠٧)، معاني القران، دار السرور.

٣٣- القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (٥٤٤)، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق طه سعد وخالد بن محمد، القاهرة، مكتبة الصفا، الأولى ٢٠٠٢.

٣٤- القزويني، محمد بن عبد الرحمن، ٧٣٩)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد خفاجي، عيسى البابي، الثانية، ١٩٥٣.

٣٥- ابن مجاهد، أحمد بن موسى البغدادي (المتوفى: ٣٢٤هـ)، كتاب السبعة في القراءات، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ.

٣٦- محمد عبده، محمد بن عبده بن حسن خير التركماني (١٣٢٣هـ، ١٩٠٥م) تفسير جزء عم، الجمعية الخيرية الإسلامية، مطبعة مصر، الطبعة الثالثة، ١٤٣١.

٣٧- مسلم، مسلم بن الحجاج، (٢٦١)، في صحيح مسلم، ترقيم محمد بن نزار وهيثم بن نزار، لبنان، دار الأرقم، الأولى ١٩٩٩.

فهرس الموضوعات

ملخص البحث .....– ٣٩٥ –
المقدمة .....– ٣٩٨ –
أهمية الموضوع .....– ٤٠٠ –
أهداف الدراسة .....– ٤٠١ –
منهج البحث .....– ٤٠١ –
الدراسات السابقة .....– ٤٠١ –
خطة البحث .....– ٤٠٣ –
التمهيد .....– ٤٠٦ –
المطلب الأول: التفسير البياني .....– ٤٠٦ –
المطلب الثاني: بلاغة القرآن الكريم .....– ٤٠٧ –
المبحث الأول: بين يدي السورة .....– ٤٠٩ –
المطلب الأول: تسميتها ونزولها وعدد آياتها .....– ٤٠٩ –
المطلب الثاني: أغراضها .....– ٤١٠ –
المطلب الثالث: وجه ارتباطها بسورة الفجر .....– ٤١٠ –
المطلب الرابع: ارتباطها بسورة الشمس التي بعدها .....– ٤١٣ –
تفسير السورة .....– ٤١٤ –
المبحث الثاني: قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ ۝١ ﴾ [سورة البلد: ١]، والمقصود من القسم المنفي. .....– ٤١٤ –
المبحث الثالث: ﴿ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ ﴾ [سورة البلد: ١]، والغرض من القسم بمكة. – ٤١٨ –
المبحث الرابع: قوله تعالى: ﴿ وَأَنتَ حِلُّۢ ۝٢ ﴾ [سورة البلد: ٢]، والوجوه في معنى حلّ.– ٤٢٠ –
المبحث الخامس: قوله تعالى: ﴿ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ ﴾ [سورة البلد: ٢]، والغرض من إعادة البلد .....– ٤٢٤ –

المبحث السادس: قوله تعالى: ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ ﴾ [سورة البلد: ٣]، وسبب القسم بهما ..... – ٤٢٥ –

المبحث السابع: قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ ﴾ [سورة البلد: ٤]، والغرض من التذكير بخلق الإنسان في كبد ..... – ٤٢٧ –

المبحث الثامن: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ ﴾ [سورة البلد: ٥]، والمقصود من الاستفهام الإنكاري..... – ٤٣٠ –

المبحث التاسع: قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ ﴾ [سورة البلد: ٦]، والسر في التعبير بأهلكت ..... – ٤٣٢ –

المبحث العاشر: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ ﴾ [سورة البلد: ٧]، والسر في إعادة التعبير ..... – ٤٣٣ –

المبحث الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ ﴾ [سورة البلد: ٨ – ٩]، والسر في خص هذه النعم بالذكر ..... – ٤٣٣ –

المبحث الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾ [سورة البلد: ١٠]، والسر من التعبير بالنجدين ..... – ٤٣٤ –

المبحث الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ ﴾ [سورة البلد: ١١]، ومناسبة التعبير لجو السورة ..... – ٤٣٧ –

المبحث الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ ﴾ [سورة البلد: ١٢]، والغرض البياني من هذا التعبير ..... – ٤٤٠ –

المبحث الخامس عشر: قوله تعالى: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ ﴾ [سورة البلد: ١٣]، وأثر نظام العبودية على المجتمع..... – ٤٤١ –

المبحث السادس عشر: قوله تعالى: ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ ﴾ [سورة البلد: ١٤]، وسر خص الإطعام بهذا اليوم ..... – ٤٤٣ –

المبحث السابع عشر: قوله تعالى: ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة البلد: ١٥]، والغرض من خص اليتيم القريب .....– ٤٤٤ –

المبحث الثامن عشر: قوله تعالى: ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة البلد: ١٦]، والغرض من خص المسكين بالصدقة دون سائر المحتاجين .....– ٤٤٥ –

المبحث التاسع عشر: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة البلد: ١٧]، ومقارنة بين هذا الموضوع وشبيهه في سورة العصر .....– ٤٤٧ –

المبحث العشرون: قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة البلد: ١٨] والسر في التعبير ب(أولئك) .....– ٤٥٣ –

المبحث الحادي والعشرون: قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة البلد: ١٩]، ومقارنته مع الإشارة للمؤمنين .....– ٤٥٣ –

المبحث الثاني والعشرون: قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة البلد: ٢٠]، والسر في التعبير ب (عليهم) .....– ٤٥٥ –

الخاتمة .....– ٤٥٦ –

التوصيات: .....– ٤٥٨ –

المراجع .....– ٤٥٩ –

فهرس الموضوعات .....– ٤٦٤ –